ساحر الكتب

ورحلة الخناجر

ريم الخالد

اسم المؤلف: ريـم الخـالد

عنوان الكتاب: آسر ورحلة الخناجر

الكويت: شركة دار مسار للنشر والتوزيع 2025

الردمك: 978-9921-831-09-2

محفوظة جميع الحقوق

1447هـ - 2025م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة دار مسار للنشر والتوزيع

مسار للنشر والتوزيع

darmasar_q8

darmasar_q8

+96592280140

Dar_masar@hotmail.com

هذا الإصدار الأول من بين عشرات الحكايات التي تسكنني، كتبته بوعي الحلم، وإصرار القلب، إيمان لا يتزعزع بأن للكلمة أثراً لا يُمحى، قد تكون هذه البداية، لكنها لن تكون الأخيرة بإذن الله.

نَجم

ماذا لو كانت الحقيقة التي تبحث عنها مدفونة في عُمقٍ لا يعود منه أحد؟

فُتِح الباب... لأن المفتاح تنفّس.

ولم يكن من حجر؛ بل من لحمٍ ونبوءة.

اسمه "آسر"، وكل ما بعده، لن يُغلق.

في زمنٍ لم تدوّن أيامه، وبين ممالكٍ لم تُرسم على خرائط البشر، كانت للبحر عروش، وللجنّ ملوك، وللظلال عهود لم يُكسر منها إلا واحد.

هذه ليست حكاية بطلٍ يعرف طريقه، ولا قصة أميرة تنتظر خلاصها؛ بل هي شرارةٌ اندلعت من قلب خيانة، وصوتُ حبٍّ حاول أن يعلو على صوت الدم.

في أعماق البحر، فُرضت زيجاتٌ لم يكن الحبّ شاهداً عليها،

وفي السماء أُطلقت لعنات، لم تجد مَن يوقفها،

وبينهما كان هناك ابنٌ، يبحث عن والده، عن ماضيه، عن نفسه،

عن الحقيقة التي وُلد منها، وربما سيُحرق بها.

آسر، قادم من سلالة الجان والظلال، يحمل في قلبه سؤالاً لا يكفّ عن التردّد:

"هل الحقيقة تُنقِذ أم تُدمّر؟"

هنا تبدأ الرحلة

رحلة الخناجر، والدم، والعهد القديم.

رحلة من لا يثق بالضوء؛ لأن بعضه أكذب من الظلال.

حين انكسرت الظلال

كانت ليلة هادئة، إلا من خرير المطر وهو يرقص على سطح منزلٍ خشبيٍ متهالك، يطل على البحر كمراقبٍ تعب من الوحدة، القمر كان مكتملاً، ينعكس ضوؤه الفضي على صفحة الماء، والموج يهمس بأسرارٍ لا يسمعها أحد، إلا من كُتب له أن يسمع.

كان آسر، الطفل ذو الأعوام الستة، يجلس قرب نافذة مشروخة، يراقب السماء والعاصفة، وقطرات المطر تتسلّل من سقف المنزل العتيق، خلفه، كان والده نوح يشعل الموقد، محاولاً طرد برودةٍ لا تُشبه يوليو، لكنها تسكن العظام.

وفجأة، تجمّدت أنفاس آسر.

عبر زجاج النافذة الضبابي، لمح ظل امرأة وسط البحر، لم تكن تسبح؛ بل ترفع يديها بتوسّل وكأنها تغرق.

ارتعد الطفل، وقفز من مكانه، يركض نحو والده.

آسر (بصوت مرتجف):

"أبي أبي! هناك امرأة تغرق في البحر"

التفت نوح بقلق، وعيناه تتفحّصان ملامح ابنه:

نوح (باستغراب):

"ماذا بك؟ أرعبتني!"

آسر:

"هناك! هناك! رأيت امرأة ترفع يدها وتطلب النجدة!"

من دون تفكير، سارع نوح إلى الخارج تحت المطر الغزير، يركض نحو الميناء القديم الذي لا يزوره إلا القراصنة في لياليهم العمياء، قلبه يخفق:

"يا رب، لا تجعلنا نصل متأخرين"

لكن حين وصل، لم يكن هناك أحد.

لا ظل، لا يد، ولا حتى دوامة في الماء.

وقف لحظات، يتنفس بخوف وارتباك، قبل أن يعود أدراجه، المطر يُثقل معطفه، والغضب يثقل قلبه أكثر.

نوح:

"هل تكذب علي وأنا في هذا العمر؟ هل تجرّني إلى المطر بلا سبب؟"

آسر متوسلاً:

"أقسم لك يا أبي، رأيتها، كانت هناك"

لكن نوح لم يكن مستعداً للتصديق، خاصة في ليلة كهذه.

نوح:

"أنت معاقب، لا مكتبة هذا الأسبوع، تكذب وتزعم؟ لا، آسر، هكذا لا تُربى القلوب"

خفت صوت المنزل، انسحب آسر إلى ركنه الصغير قرب النافذة،

حيث بدأ كل شيء، جلس بصمت، يمسك بقلادته الذهبية،

تلك التي لا يخلعها أبداً، من دون أن يعرف لماذا.

وفجأة...

ظهر الظل مجدداً.

لكن هذه المرة لم تكن امرأة تطلب النجدة.

كانت تضحك.

تضحك ببطء، بعينين لامعتين من تحت الماء، قبل أن تغوص

ويظهر شيء لم يره آسر من قبل.

ذيل أزرق طويل، مغطى بحراشف ذهبية، يلمع تحت القمر.

شهق آسر بصوتٍ مكتوم، وعيناه تتسعان في رعب.

لم تكن إنسانة

كانت شيئاً آخر.

شيئاً لا يُقال.

حين ينهض الرماد

حين يأسر البحر أرضاً صغيرة تُدعى مدينة أرجان، تتكاثر الأساطير كما تتكاثر الأمواج، وتُروى القصص كما يُروى الظمأ، فهي مهد القراصنة، ومنبت الغواصين والبحارة الأوائل.

سماها قرصان قديم أرجان بهذا الاسم، وهو أول من شيدها، رسم قوانينها، وجعلها مأوى للقلوب المتمردة على اليابسة.

فيها خيرات البحر، وفيها أسراره.

وكان نوح من أعظم البحارة وغواصاً مُحترِفاً، رجل تناغم مع الموج كأنّه وُلد من صلبه.

ورث البحر من أبيه؛ بل وتجاوزه، كان البقية يتعلمون فن الغوص، أما نوح فكان يُحاور البحر.

وفي ليلة هادئة، قمرها مكتمل، ونجومها صامتة، تلقّى نوح خبر وفاة والده،

سقط الخبر على روحه كصخرة تُلقى في أعماق بئر لا قاع له.

هرب نحو البحر كما اعتاد أن يفعل.

جلس على جسرٍ خشبي صغير، تدلت قدماه فوق الماء، وهو يستعيد ملامح الطفولة في وجه أبيه، وصوت صرخاتهما عند أول غوصة،

ذرفت عينه دمعةً كسرت صمته.

وفجأة، وسط الانكسار، لمع خيال وجهه على سطح البحر، لكنه لم يكن وحده.

صوتٌ ناعم، شبيه بالنداء، اخترق أذنه:

"ما بكَ أيّها الغريب؟ تبدو حزيناً كالغرقى"

رفع نظره، فرأى امرأة تطفو على سطح البحر،

وجه قمري، شعر أسود كسواد أعماق البحر، وعينان لامعتان كنجمتين نازلتين،

قال بنبرة مكسورة:

"هل يتجاوَز المرء فقدان وهج روحه؟"

ابتسمت، ولم تجب، فقط اقتربت، وقالت:

"لم تكن تعلم أن لقاءكما الأخير هو الوداع؟"

عقد الحزن حلقه في حلقه، همّ بالنهوض، لكنّها أمسكت بيده فجأة، وهمست:

"اجلس يا نوح، أعلم أنك لست بمزاج لحكاية، لكنك لست مُخيّراً"

شهق؛ كيف عرفت اسمه؟

أحس بقشعريرة تسري في جلده، لكنه بقي، هناك شيء فيها لا يُقاوم،

بدأت تروي، وصوتها أشبه بأغنية حزينة تحت سطح البحر:

"في الأعماق، ملكٌ لا يرحم، يُدعى محرز،

من فصيلة نادرة تُعرف بـ(السرائل)، جنّ مائيون مهيبون،

رجالهم يُشبهون أعمدة الأمواج، حادّي الملامح كحواف الصدف،

وأصواتهم كأنها صدى يخرج من كهفٍ غارق،

أما نساؤهم، ففتنةٌ صامتة، يُلقّبن بـ(الحوريات)،

بشرة كضوء القمر، وشَعر كالضباب، وأعين... من يرى أعينهن قد لا يعود من يقظته أبداً..."

سكتت لحظة، ثم تابعت:

"لم يسلم أحد من بطش محرز، وكانت لديه ابنتان وهما:

لاريسا ذكية، ماكرة كأمواج الشتاء، عينان خضراوان لامعتان كزمردتين في ظلال الغابة، وشعرٌ أسود طويل يتهادى خلفها كذيل ثوبٍ ملكي، ملامحها حادّة دقيقة، كأن وجهها صُقل بعناية الخداع، جميلة بجمالٍ لا يبعث الطمأنينة؛ بل يثير الحذر، ابتسامتها نصفها سحر، ونصفها شمّ.

ولينا، جميلة كأنها تنتمي إلى عالمٍ لم تعرفه الخطيئة، عيناها بلون العسل المصفّى، يضيئهما حزنٌ غامض لا يُفسّر، وشعرها بنيّ فاتح يميل إلى الذهبي، ينسدل ناعماً حتى خاصرتها، وجهها بيضويّ ناعم، خدّاها يزهران بحمرة حياءٍ دائم، وفي مشيتها هدوء المساء، وفي صوتها دفء لا يشبه أحداً، كانت تشبه الحلم الذي لا تجرؤ على إيقاظ نفسك منه.

في قلب محرز نُسجت خُطّة:

أن يُزوّج لينا لوريث آل زايريس،

رومان، ابن مملكة الظل النقي، أقوى وأندر سلالة في الجان.

الزواج كان سياسياً، قاسياً،

ولم يكن للرغبة أو للقلوب فيه نصيب.

لينا قالت: "نعم، ليس حباً؛ بل خوفاً"

ورومان لم ينطق، لكنه قَبِل، ليس طاعةً؛ بل واجباً.

في ليلة العرس...

كان الحفل صاخباً،

الملوك والسحرة والنبلاء كلهم شهدوا التحالف الملعون.

الكل يعلم، إذا اتحد آل زايريس مع السرائل فإن ممالك البحار الأخرى رهن الخطر.

جلست لينا في الزاوية، متجمّدة الملامح، تنظر أمامها كأنها لا ترى، لكن عينيها كانت تخونها أحياناً، تتسلّلان نحوه من دون أن تدري.

أما رومان، فكان يراقبها من بعيد،

كأنّه يحدّق في مرآة يرى فيها نفسه يُدفن حيّاً ببطء، كلّما اتّسعت المسافة بينهما.

هيبته تسبق خُطاه، كأنّ الصمت نفسه يتّسع حين يقف،

ملامحه جادّة، لا تُبدي ضعفاً، ولا تسمح بالاقتراب بسهولة، وسامته جامدة كتمثال، لا يبتسم بلا سبب، وعيناه السوداوان، العميقتان، تحرسان ما لا يُقال، وتخفيان أكثر مما تُظهران، كان يشبه الحضور الذي لا يُطلب، لكنه يفرض نفسه، الرجل الذي إن نظر، سكنت الضوضاء، وإن صمت، تكلمت الملامح.

لاريسا، بمحاولاتها اليائسة، كانت تمسك بيد أختها، وتهمس لها:

"اصبري، قد لا يكون كما تتصورين"

لكن القلب لا يُطمأن بالخداع.

وكان هناك شرطٌ قديم، اتفق عليه والد رومان ومحرز، حافظ على توازن الممالك بحذرٍ لا يُرى؛ إذ كان اتحادهما محظوراً، خوفاً من أن يولد منه شيءٌ قد يُغيّر مصير الجميع، شيءٌ يحمل في طيّاته نهاية لا يجرؤ أحد على مواجهتها.

تم الزواج.

كان وداعاً أشبه بالطعنة...

ضمّ محرز ابنته الجميلة لينا، لا حباً بها؛ بل توديعاً لفريسة يُرسلها بيديه إلى وكر الجحيم، كانت نظراتها إليه جامدة، لكنها تحمل سمّاً من نوعٍ آخر، نظراتُ كراهية لا ترفع صوتها، لكنها تُذيب القلب كقطرات السم البطيء.

في الطرف الآخر، وقفت لاريسا تحتضن شقيقتها بقوة، كأنها تحاول زرع نفسها فيها، كأن العناق قادرٌ على تأجيل المصير.

همست لاريسا، وقلبها يرتجف:

"أنتِ لستِ إلا ضحية، يا لينا، أقسم إنني سأجد طريقاً لإنقاذك، لن أتركِكِ وحدكِ هناك"

قالت لينا بصوت مكسور:

"أثق بكِ، لا تجعليني أعش مع هؤلاء الوحوش يا لاريسا، لا تجعليني واحدة منهم"

لكن اللحظة قُطعت، حين اقترب محرز وضحك ضحكة جوفاء، وقال بصوته الصلب:

"كفى هذا الدلال، أميرك ينتظركِ، وعلينا أن لا نُغضبه"

سحبها من بين ذراعي أختها من دون رحمة، ودفعها نحو العربة التي ستنقلها إلى القارب، ومنه إلى الجزيرة المُحرّمة.

لأول مرة، نطق رومان، جالساً إلى جانبها داخل العربة، كان صوته هادئاً، فيه نبرة رجل مرغم، لا أمير مغرور.

قال:

"أعلم أنكِ مجبرة، وأنا كذلك، نحن ضحايا آباءٍ ظالمين، لا نملك خيار الرفض،

لكنني أؤمن، سيأتي يوم نحكم فيه هذه الممالك، أنا وأنتِ، وسنصنع عهداً جديداً، لا مكان فيه للطغاة"

لم تُجبه لينا، التزمت الصمت، تنظر من النافذة إلى ضباب البحر يلتهم الأفق.

وصلوا إلى القارب، وقبل أن يركبوه، كسرت لينا الصمت:

"لم أعلم أن جن الأرض يستطيعون التنفس في الماء"

ضحك رومان ضحكة خفيفة:

"أستطيع، ولكن الغريب أن الحوريات يستطعن الخروج من الماء"

أجابته لينا بهدوء:

"فقط من يملكن النسل الملكي، بعضنا يمكنه العيش حياة بشرية كاملة"

رفع رومان حاجبه باستغراب:

"حياة بشرية؟ من أين لكِ هذه المعرفة؟"

قالت بنبرة خافتة:

"أختي لاريسا، تعرف الكثير من الحقائق التي لا نعرفها، دائماً كانت تعرف"

صمت رومان لحظة، ثم قال وهو ينهض:

"لقد وصلنا"

عند باب الكهف، انحنى ومد يده للينا، ترددت، ثم مدت يدها بتردد، كان أول تماس بينهما، بارداً، باهتاً، لكنه خفياً ألقى شرارة.

تقدّم الجني المسؤول، وقال:

"هذا الكوخ مجهّز بالكامل، لا حاجة إليكما بالخروج، الطعام

سيصلكما يومياً، ستتواصلان مع عائلتيكما برسول، مرتين فقط، والآن، انتهت مهمتي"

غادرهما، تاركاً الباب خلفه يُغلق ببطء، كأن الكهف يُبتلع ويبتلعهما معه.

قال رومان:

"السيدات أولاً"

دخلت لينا، تتفحص المكان، كهف متقشف، غرفة نوم بسرير واحد، صالة صغيرة، أريكة متعبة، مطبخ، وباب خفي في الزاوية.

ذهبت لتجلس على طرف السرير، أما رومان، فاتجه إلى المطبخ، فتح الخزائن، فلم يجد ماء، فقط قنينة شراب بنفسجي اللون، رائحته ثقيلة.

عاد إليها، وقال:

"لا يوجد ماء، فقط هذا، لا يبدو صالحاً"

قالت من دون أن تنظر إليه:

"لنقسّم النوم، عشرون ليلة لك، عشرون لي"

اقترب منها بهدوء:

"لا داعي، يمكنك أخذ السرير دائماً، النوم على الأريكة لا يُزعجني"

نظرت إليه وهلة، ملامحه لم تكن مخيفة كما تظن، لكن فيها شيء لا يمكن الوثوق به.

في الليالي التالية، أصبح الصمت ثالثهما، لم يتبادلا الحديث إلا عند وصول الطعام.

ومع منتصف الأربعين، أتى الرسول، أعطى كلاً منهما رسالة.

فتح رومان رسالته من أبيه بلا مبالاة، يقرأها كما يقرأ أخباراً لا تخصه.

أما لينا، فتجمدت حين رأت اسم لاريسا.

أمسكت بالظرف كما يُمسك شخص بشيء يخاف أن يجرحه، فتحتها بخوف، وبدأت تقرأ.

كان فيها مخططاً كاملاً...

قتل رومان،

الخنجر المرصع بالياقوت الأحمر مغموس في الزئبق،

تنفيذ العملية ليلة الأربعين،

إلصاق التهمة بالجني المُرسِل،

والفرار إلى عالم البشر، حياة جديدة.

قلبها ارتجف، شعرت بدوار.

جلست على الطاولة، وأمسكت بورقة، وبدأت تكتب الرد:

"لاريسا...

كل ليلة هنا تُشبه الموت، هذا المكان يُجردني منّي،

هو لا يتحدث كثيراً، لكنه ليس كما قالوا.

لا أعلم إن ما زلتُ أريد قتله، لكنني لا أستطيع العودة أيضاً"

سمعت خُطى رومان، فأغلقت الرسالة سريعاً، وخبأتها تحت الوسادة، كتبت على الغلاف:

"إلى لاريسا فقط"

خرجت من الغرفة، فإذ برومان جالس تحت فجوة السقف التي تكشف القمر، شعره مبتل من رطوبة الجو، وظهره نحوها.

قال من دون أن يلتفت:

"كنتِ تكتبين؟"

أجابت بخفوت:

"فقط... كلمات"

التفت إليها، عيناه لا تحملان سخرية ولا قسوة، فقط شيء غريب، كأن البحر في داخله، موارب وغامض.

قال بهدوء:

"اجلسي"

جلست إلى جانبه على السجادة، صمت طويل بينهما، صمت لم يكن جليداً؛ بل نهراً يتكون ببطء.

رفع عينيه إلى القمر، وقال:

"في هذا المكان، الكل يُجبر على أن يكون شخصاً آخر، هل تشعرين

بذلك، لينا؟"

لم تُجب، لكنها نظرت إليه...

للمرة الأولى، من دون كراهية، فقط حذر وفضول.

وكأنها تسأل نفسها، هل أقتله؟ أم أنقذ نفسي بطريقٍ آخر؟

قطع رومان شرودها بنبرته الهادئة:

"أودّ أن أحكي لك عن حياتي، هل لديكِ وقت لتسمعيني؟"

لم تُجب بالكلمات، فقط أومأت، ثم انحنت برأسها قليلاً، كأنها تستعد لسماع وجعٍ مألوفٍ في قلبها، بدأ رومان يتحدث، عن طفولته، عن والده، عن القصور الباردة التي عاش فيها من دون دفء حقيقي، عن الضحكات المخبأة في الزوايا المظلمة، تكلّم عن المرات التي كان فيها وحيداً، على الرغم من الحشود، وعن المرات التي أراد فيها أن يكون حراً، لكنه لم يُولد للحرية؛ بل للعرش.

ضحكت لينا على قصّة له عن معركة طفولية خسر فيها أمام طائر البحر، ضحكت من قلبها، للمرة الأولى، كانت ضحكتها كأنها تخرج من سجنٍ طويل، ونظر إليها رومان، وعيناه لا تصدّقان ما يرى، لقد كانت لينا، أخيراً، معه لا ضده.

روت له هي الأخرى عن طفولتها بين أمواج البحر، وعن صمت والدها الذي لم يُشبه الحنان، وعن أيامٍ كانت فيها، الجميلة الصامتة، التي لا يؤخذ برأيها، فقط بجمالها، أخبرته عن الحوريات، عن البحر الذي يُخفي أكثر مما يُظهر، وعن أختها لاريسا، وعن كيف أصبح الحب في حياتها مجرّد فكرة مستحيلة.

قالت في نعاسها:

"رومان، ما رأيك أن ننام هنا؟"

رومان بدهشة: "بجانب بعضنا؟"

لينا: "بالطبع لا، فقط تحت السماء، دعنا ننم والنجوم تراقبنا"

ابتسم رومان، وجلس إلى جانبها، نامت هي أولاً، واستغرق هو في النظر إليها طويلاً.

مرّت الأيام، وكل يوم كان يكشف فيه أحدهما للآخر طبقة جديدة من القلب، كانت لينا تكتشف أنها ليست ضحية بقدر ما هي تائهة، وأن هذا الجني، المجبور مثلها، ربما لم يكن وحشاً كما ظننت؛ بل مرآة لقلبها.

وفي الليلة الخامسة والثلاثين، سألها فجأة بعد أن تبادلا الضحك ساعات عدة:

رومان: "لينا، هل تعلمين أن لدي رغبة عظيمة في لمس يديكِ؟"

حدّقت فيه، ولم تُجب.

رومان: "أحبكِ، أعلم أنك تظنين أنني قاسٍ أو بارد، لكنني لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيكِ"

كانت نظراته تشقّها من الداخل.

قالت بعد صمتٍ طويل:

"لا أستطيع إخفاء وهج عينيّ حين تكون أمامي، لقد عشقتك يابن

الظلال"

اقترب منها، فاستقبلته بذراعيها، تلك الليلة، لم تكن مجرد اعتراف؛ بل كسراً لعهدٍ قديم، وهمساً في وجه المؤامرات، أن الحب قد ينبت حتى في أرضٍ ملعونة"

لكن الفجر التالي كان قاسياً.

استيقظت لينا على نظرات رومان التي تراقبها بصمت، كان يبتسم كأنه رأى حلماً حقيقياً.

ولكنها تذكرت الرسالة، الرسالة التي كتبتها بيدٍ مرتجفة إلى أختها، والتي حملها الرسول قبل أيام، تذكرت اتفاقهما على قتله، دموعها بدأت تسيل بصمتٍ، كأن جسدها يعلن تمرّده على عقلها.

"ما بكِ يا حبيبتي؟)، سألها رومان وهو يقترب.

لينا: "لا شيء)، لم تفعل شيئاً، قالتها والدموع ما زالت تسيل.

ثم نهضت مسرعة، وخرجت إلى السطح، تحاول الهروب من نفسها، تذكرت ضحكته، كلماته، خوفه منها، حنانه، كيف ستسلّم قلبها الآن لسكّين؟ كيف ستمنح لاريسا حبيبها قرباناً؟

اقترب منها رومان مجدداً، فمسح دموعها بكفّه.

رومان: "إن كان هناك ما يوجعكِ، قولي لي، لا أريد رؤيتكِ هكذا"

عندها فقط، قررت لينا أن تغيّر خطتها، لن تكتب رسالة جديدة؛ بل ستقف في وجه لاريسا عندما تأتي، حين ترى الخنجر في يد أختها، ستحول جسدها درعاً، لن تسمح أن يُذبح رومان، ليس بعد الآن.

**

وفي الليلة الأربعين.

في الفجر.

نعست لينا فجأة، شعرت بثقلٍ في عينيها كأن النوم يُسحب منها رغماً عنها، فاستلقت على السرير تحت ضوء القمر الشاحب.

دخل رومان بهدوء، واقترب منها، جلس يتأمل وجهها كأنّه يرسمه في ذاكرته.

وفجأة، دوّى صوت صرير باب الكهف الحجري.

نهض رومان فوراً، وقال في نفسه: "لا بد من أنه الجني المسؤول عن إعادتنا"

اقترب من لينا، وهزّها بلطف:

رومان: "لينا، حبيبتي، استيقظي، هناك من عند الباب"

فتحت عينيها بتثاقل، ثم تذكرت.

اليوم هو يوم القتل، قالتها في نفسها، وارتجف جسدها كله.

ثم وقفت.

وتقدّمت أمام رومان، ببطء، بخوف، لتجعل جسدها حاجزاً أمامه.

"رومان، ابقَ خلفي"

صُدم، لكنه أطاع.

بدأ الباب يتحرك ببطء.

وراءه كانت لاريسا.

وفي يدها، كان الخنجر الأحمر، يلمع في ضوء القمر كما لو أنه يطلب دماً.

لكن ما حدث بعدها، لم يكن ضمن أيّ خطة....

وتوقفت المرأة الغريبة عن سرد الحكاية، ونظرت إلى نوح.

انتهى وقتي يا نوح، الشمس تصعد، والقمر ينسحب، سأراك الشهر القادم، في الليلة نفسها، وسأكمل لك الحكاية.

واختفت.

وظل نوح جالساً على جسر البحر الخشبي، يتأمل انعكاس القمر المتلاشي على سطح الماء، وقلبه مليءٌ بالأسئلة.

غزا الشيبُ شعر نوح باكراً، ليس لأن السنين أثقلته؛ بل لأن قلبه لم يشفَ يوماً من فقد أمه وأخته في حادثة أليمة نسجت ظلال الحزن في كل زوايا حياته، وعلى الرغم من كل ذلك، كان مضطراً إلى أن يعيش، أن يواصل، وكأن الحياة لا تترك لمن فقدوا خياراً سوى الاستمرار.

في مساء مُتعَب، كان نوح يُقشّر جلود السمك على ميناء السرجس استعداداً لبيعه في السوق، حين لمح لفافة قماش صغيرة موضوعة قرب مؤخرة قاربه الصغير، ظنها غلطة، حتى اقترب منها، ليكتشف أن اللفافة لم تكن سوى رضيع صغير ملفوف بعناية، وقلادته الذهبيه تتدلى من رقبته، عيناه الواسعتان تحدقان فيه ببراءة صادمة.

ارتعد قلب نوح، تجمدت يداه، كيف؟ متى؟ لقد كنت على مقربه طوال الوقت! حدّق في الأفق، انتظر، ربما والداه نسياه، لكنه انتظر طويلاً، والشمس بدأت تودع البحر.

أجهش الطفل بالبكاء، فحمله نوح إلى صدره، ومضى به إلى البيت، بعد أن اشترى له زجاجة حليب، لم يدرِ أنه في تلك اللحظة، صار أباً لطفل لا يعرف اسمه، ولا من أين أتى، ولا إلى أي مصير سيأخذ قلبه.

لكن المدينة لم ترحم، في غضون أسابيع، انتشرت الإشاعات، نوح زنى بابنة جاره، والطفل ثمرة خطيئته، لم يكلّف نفسه بنفيها؛ لأنه يعلم لا أحد سيصدقه، ترك الناس يقولون ما يشاؤون، وبدأ رحلته مع ذلك الطفل الذي أسماه "آسر"

عشر سنوات مضت، وفي ليلة هادئة جلس نوح إلى جانب آسر يخبره بالحقيقة: "وجدتك في قاربي يا بني، كنت هدية القدر، أو لعنة، لا أدري، لكنك لست من صُلبي"

نظر آسر إلى عينَي الرجل الذي ربّاه، وفي قلبه ألف حكاية لم تُروَ، لم يبكِ، لم يصرخ، فقط قال: "أنت أبي"

ومضى يكمل حياته، راضياً.

لكن الحياة لا ترضى.

في عامه الثامن عشر، رحل نوح، سقط من قاربه في ليلة عاصفة، ولم يُعثَر له على أثر، لا جثة، لا وداع، اختفى كما أتى آسر إلى حياته، غامضاً.

حزن آسر حزناً هائلاً، عاش وحيداً أشهراً عدة، لم يسأل عنه أحد سوى صديقته الوحيدة، آريا، كانت تزوره، تعتني به، وتُبقيه حياً حين بدا له الموت راحة.

وفي أحد الأيام، جلست قربه، وسألته:

"يا آسر، لماذا لا تبحث عن والديك الحقيقيين؟"

آسر: "نوح قال لي إنه وجدني في قاربه، إن رمياني، فهما لا يستحقان بحثي"

آريا: "وماذا لو كنت مختطفاً؟ ماذا لو لم يكن الأمر كما تظن؟"

آسر: "أفكارك كأفلام الأطفال، كُفّي عن هذا"

آريا: "حسناً، أوصلني إلى منزلي إذاً، أيها الغاضب الصغير"

في طريق العودة، رأى آسر عربة خشبية متهالكة، كانت عجوز قارئة تاروت تجلس فيها، فقرّر أن يُجرّب.

دخل وجلس أمامها، فقالت:

"اختر ثلاث ورقات"

فعل.

كانت: "البحر، الإمبراطور، البئر"

قالت العجوز بصوت غامض:

"البئر، شك وشكوك،

. البحر، أعماق لا تنتهي،

. الإمبراطور، دم ملكي، وسلطة مفقودة"

ضحك آسر، شتم نفسه، وعاد إلى بيته ساخراً من السخافة التي دفع لها ماله.

لكن في الطريق، وإلى جانب ميناء السرجس، وتحديداً على قارب والده المتوفى، لمح زجاجتين مرميتين، واحدة تحتوي على سائل بنفسجي، والأخرى في داخلها لفافة ورقية.

التقطهما وبدأ يتفحص بعينه، فتح الزجاجه التي تحتوي على اللفافه، وقرأ:

"آسر،

اعلم أن ما شرق منك ليس فقط طفولةً؛

بل حقيقةً لم يكن يُسمح لها أن تولد.

نوح، لم يكن والدك، وإن كان خير من ربّاك.

فأبوك من سلالةٍ لا تُرى في الضوء، من الجانِ الذين وُصفوا بـ(الظلّ النقي"

وأمك، حورية من نسل الملوك، من دمٍ بحريٍّ لا يلين.

تحالفهما كان محرّماً،

مكتوبٌ أن لا يُنجب،

لكن الحب، شقّ ما لم يُشقّ منذ قرون، وكنتَ أنت الخطيئة والنبوءة معاً.

لا تسألني من أكون،

فاسمي أثقل من أن يُقال في هذا الوقت.

ابحث عن قاسم، في صحراء أندروميدا،

هو وحده من سيريك ما أخفاه الجميع.

اشرب السائل الذي تُرك لك، فإنه لن يمنحك القوة؛ بل سيفضح العلامات الموروثة في دمك، وعندها سيعرفك البحر، وسترتجف الظلال.

نلتقي، حين تُفتح الأبواب التي لا تُفتح.

– من كان يراقبك قبل أن تولد"

ضحك آسر، ظانا أن الرسالة خدعة من أطفال أرجان المزعجين.

لكنه لم يضحك طويلا.

إذ إنه شعر بشيء يراقبه، ثم يد تمسك بكتفه، فاستدار فزعاً،

كان مخلوقاً قصير القامة أشبه بالحيوان المشوه، بقرنين أحمرين، وعينين بلون الدم، رجلاه كقدمي كلب، وصوته عميق وخشن.

المخلوق: "هل أنت ابن رومان؟ أم أنني مخطئ؟"

صرخ آسر صرخة أيقظت أرجان بأكملها، وسقط مغشياً عليه.

حين استعاد وعيه، كان أول ما رآه وجه آريا، جاثية إلى جانبه، ممسكة برأسه بحنانٍ غريب، تقرأ عليه آياتٍ بصوتٍ مرتجف، ودموعها تتساقط بحرارة على وجنتيه.

فتح عينيه بتعب، وابتسم بمرارة قائلاً بصوتٍ مبحوح:

"لم أظن أنكِ تخافين عليّ، يا مشعوذة"

رسمت آريا ابتسامة صغيرة على شفتيها، ولم تفتح عينيها، كأنها

تخاف أن تنكسر لحظة نجاته.

"دموعي حرام عليك، يا سرعوف"

ضحك بخفةٍ، على الرغم من الألم الذي يسكن عظامه، بمساعدتها، نهض ببطء، وعلم منها أنه كان غائباً عن الوعي مدة يومين كاملين، انعقد حاجباه بدهشة.

آسر:

"يومان؟ لم أشعر سوى بلحظة، لا أتذكر شيئاً... سوى صورة... شيء بشع، ظل يطاردني حتى في اللاوعي"

أصرّت آريا على أن يبقى في منزلها حتى يستعيد عافيته، وفي المساء، عند مائدة العشاء، وسط دفء الإنارة الخافتة، ورائحة الخبز المُحمّص، سأل آسر بنبرة خفيفة، لكن عينيه كانتا تلمعان بالقلق:

"آريا، عندما فقدت الوعي، كانت معي زجاجتان، أين هما؟"

رفعت آريا حاجبها باستغراب:

"زجاجتان؟ لم يكن معك شيء، ما محتواهما؟"

تردد آسر، وغاص في أفكاره، هل كانت المخطوطة حقيقية؟ هل والداي على قيد الحياة فعلاً؟ صورة المخلوق الغريب تومض في رأسه، والنجمة الدموية المرسومة على الأرض تعود لتطارد بصره.

قاطعت شروده آريا بإلحاح:

"يا آسر، لم تجبني، ما محتوى الزجاجتين؟"

نظر إليها مليّاً، ثم قال بجدية لم يعتدها في صوته:

"هناك شيء يجب أن تعرفيه يا آريا"

وبدأ يسرد لها قصته من لحظة عثوره على الزجاجتين، إلى المخطوطة، إلى سقوطه.

استمعت آريا بصمت، قبل أن تنهض فجأة وتعود بعد دقائق، حاملة الزجاجتين في يدها.

آريا:

"كانتا في خزانتي، ظننتك تهذي"

تناولت المخطوطة، وبدأت تقرأها بعناية:

"تقول إن هذا المشروب يُظهر قوتك الحقيقية، فلِم لا تجربه؟"

ضحك آسر بتهكم:

"وإن كان سمّاً يقتلني؟ هل ستبكين على فراقي يا من أقنعتني بشربه؟"

أجابته بابتسامة ماكرة:

"سأسخّنه على النار، لو كان سمّاً، سيتكسر تركيبه"

آسر (مدهوشا):

"فكرة ذكية، يا ذكية!"

أحضرت القارورة وسخّنتها، ثم عادت بها إليه وهي ترفع حاجباً:

"لنرَ يابن الشرين، ما الذي ستكشفه هذه القارورة"

فتحها آسر، اشتمّ رائحتها، كانت غريبة، نافذة، كأنها رائحة معدن مغلي ممزوج بطحلب البحر، نظر إلى آريا، فوجدها تُحدّق فيه بثباتٍ نادر، فشرب.

ومرّت الدقائق، لا شيء.

آريا:

"يبدو أنها خدعة"

آسر:

"نعم، خدعة"

نهض من مكانه، ناوياً الرحيل، لكن ما إن تحرّك خطوتين حتى سقط أرضاً فجأة، جسده يرتجف بعنف، وصوت آريا يصرخ اسمه.

في داخله، كان شيئاً يتكسّر، حرارة اجتاحت عروقه، رؤى متلاحقة ضربت رأسه كالصواعق، رأى نفسه في أعماق البحر، أشكال مرعبة تطوف حوله، نجمة سداسية مرسومة بالدم، سيوفٌ تلمع في الظلام، وصرخات لا هوية لها.

وعاد.

فتح عينيه، والدمع في وجه آريا.

نهض ببطء، مدفوعاً بطاقة لم يشعر بها من قبل، هرع إلى المرآة، رأى انعكاساً

غريباً.

لم يعد ضعيفاً كما كان، جسده قويّ، وعضلاته مشدودة كمن صُنع من النار والماء.

وجهه وسيم بطريقة تُربك العين...

عيناه تلمعان بلون الدم، وعلى عنقه نجمة سوداء، تنبض كأنها قلب ثانٍ لا يهدأ.

آسر (بدهشة):

"هل ترين ما أراه؟"

آريا (بهمس):

"نعم، وأشعر أنك لم تعد آسر الذي أعرفه"

تقدّمت منه، لمسته بحذر وقالت:

"لم تكن خدعة، سكان هذه المدينة لا يملكون شيئاً كهذا"

آسر:

"هذا يعني أن عائلتي ليست بشراً"

آريا:

"ستبدأ مغامرة"

آسر:

"مغامرة ماذا؟"

آريا:

"للبحث عن عائلتك، يا سرعوف"

حين نطقت بكلمة "عائلتك"

شعر آسر بشيءٍ يُزهر في داخله، لمسة دفءٍ خافتة في صدرٍ تعوّد البرودة،

شيء لم يعرفه منذ طفولته، أملٌ هشّ، مرارة حلوة، وسؤالٌ واحد ظلّ يلسعه: "لماذا تخلّيا عني؟"

كان السقف فوقه كسماءٍ رماديّة، لا نجوم فيها، فقط صمت،

وتسلّل النعاس إلى عينيه ببطء، كأنه انسحابٌ من كل شيء، من الأسئلة، من الذكريات، من الوحدة.

غطّى نفسه ببطانية آريا، وأغمض عينيه أخيراً.

كان الظلام يزحف من زاوية الغرفة، ثقيلاً كأنه سائلٌ أسود لا ينفكّ يلتهم كل شعاع ضوء يتسلل إليه، صمتٌ رهيب عمّ المكان، حتى اختلط بصوتٍ غريب، لا يشبه لغة البشر، يتردد في الأرجاء كأنه من عالمٍ آخر.

فجأة، فتح آسر عينيه ببطء، هناك، في وسط الظلام، ظهر شيءٌ لم يرَ مثله من قبل، عينٌ حمراء كبيرة، محاطة ببقعة سوداء، كأنها فتحة في عمق الهاوية، تحدّق فيه بثبات لا يرحم.

الصوت همس بصوتٍ جهوري متداخل بين الهمس والهدير:

"يا آسر، اسمعني جيداً، في صباح الغد، سيرافقك حصانان أسودان

عند بوابة المدينة، لا تخف، اركب عليهما مع صديقتك، ستأخذكما إلى الضفة الفاصلة بين أرجان وقرية مهاتر، هناك، على مياه النهر، سترى سفينة عظيمة تلوح كظلٍ مظلم في الأفق، استقلاها، وأغلقا الباب خلفكما، لا تتحدثا، ولا تلتفتا إلى من يقود السفينة، لأنهم سيرونكما، لكن لا يُجدر بكما النظر إليهم..."

صمتت العين قليلاً، ثم عاد الصوت ينبعث من الأعماق، كأنه صدى من عالمٍ آخر:

"وفي فجر اليوم الثالث، سيُقرَع البوق، حينها سيتغير كل شيء، استعد يابن الظلال والبحار؛ لأن طريقك لن يكون سهلاً"

بدأت العين الحمراء تذوب ببطء وسط الظلام الكثيف، واختفى الصوت كما لو أنه لم يكن موجوداً من الأساس، تاركاً آسر وحده في غرفةٍ باتت أكثر برودة ووحشة من أي وقت مضى.

ضُدم آسر، جسده يرتجف ببطء، وعقله يركض محاولاً فهم الرسالة الغامضة التي وصلت إليه من حيث لا يعلم، كيف يعرفون؟ وما السر وراء تلك السفينة؟ وما معنى البوق؟

لكنه لم يجد جواباً.

حل الصباح...

رأى آريا تعدّ حقيبتها، والطيور تغرّد قرب نافذتها.

صنع لها الإفطار بصمت، وعندما جلست، سألته مازحة:

"ذهبت إلى الميناء؟"

أجابها وهو يُحضّر وجبته المفضلة:

"تغيّرت خطتنا"

وسرد لها كل شيء، وكلما زاد حديثه، زاد خوفها.

آريا:

"آسر، وإن كان فخاً؟"

آسر (بهدوء صارم):

"هل تظنين، بعد كل ما حدث، أنني إنسان عادي؟"

سكتت آريا...

بدأت آريا تحزم أغراضها، وغادر الاثنان بيتها، وكل منهما يعلم أنه لن يعود كما كان.

وعند بوابة المدينة، كان هناك حصانان، تماماً كما قيل له.

ركبا عليهما، وفي الطريق، وسط زحمة السوق وضحكات الأطفال، بدأت آريا تفكر بصوت عالٍ:

"ذاك المشروب غيّرك يا آسر، كل من رأوك بالأمس أصابهم الذهول، وإن كان هذا ما فعله شراب، فماذا ينتظرنا؟"

نظر إليها مطولاً، وقال:

"إن كنتِ خائفة، يمكنكِ العودة، لن ألومك"

لكنها تمسّكت بلجام الحصان بقوة، وقالت بصوتٍ واثق:

"تذكر وعد طفولتنا؟ أنا أوفي به الآن"

آسر (مبتسماً):

"أعلم، انظري هناك!"

كانت سفينة، لكنها ليست كأي سفينة.

ضخمة، قديمة، تعلوها أعشاب البحر، ولها رائحة التاريخ.

آريا (بذهول):

"أنا ابنة البحر، ولم أرَ شيئاً كهذا قط"

آسر (بهمس):

"إن حجمها أرعبني"

آريا:

"فلنذهب، فقد بدأ كل شيء"

الوعد القديم

كان الليل قد بدأ يزحف ببطء إلى صفحة البحر المظلمة، حين صعد آسر وآريا على متن السفينة القديمة، خشبها المتهالك صرخ تحت أقدامهما، كأنها تئن من كل خطوة، والضباب يزحف بثقل حول سطحها، كأن البحر نفسه يرفض أن يكشف عن هذه السفينة اللعينة، تقدّما بصمت نحو ممرٍ جانبي مغمور بالظلال، ووجدا باب غرفة نصف مفتوح، صريره الخافت كان كافياً ليجعل شعر الرقبة ينتصب.

دخلا إلى الغرفة، وأغلقا الباب خلفهما بصوت مكتوم، كان الجو داخلها خانقاً، برودة غريبة تسكن جدرانها، ورائحة عفن قديم ممتزج بالحديد الصدئ تملأ الأنفاس، إلى جانب الغرفة، انتصبت براميل ضخمة شفافة تلمع على ضوء مصباح مائل، مملوءة بسائل أحمر داكن يتخثر على السطح، بدا كأنه دم، لا أكثر.

قرب البراميل، كومة من الكتب المبعثرة على الأرض، في أثناء تفحص آريا المكان، اصطدمت قدمها بشيء صلب ومخبأ تحت إحدى الأقمشة الرطبة، أزاحت القماش بحذر، فظهر كتاب ذو غلاف جلدي بُنّي مُتآكِل، مُتشقِّق الأطراف، كأنه نُبش من قبر، حملته بيدها المرتجفة، وعلى غلافه طُبعت كلمات باهتة:

"سفينة الموت"

في اللحظة التي فتحت فيها آريا الكتاب، بدأت السفينة تتحرك ببطء، اهتزت الجدران، وأصدر الخشب صريرا حاداً، فقال آسر وهو ينظر من النافذة:

"ها نحن ذا، بدأت رحلتنا"

تمدّدت آريا على الأرض، غارقة في صفحات الكتاب، بينما استلقى آسر إلى جانبها ليأخذ قيلولة قصيرة، لكن عيني آريا لم تفارق الكلمات، كانت القصة تبدأ بشاب من قرية ساحلية، لا يؤمن بأسطورة "سفينة الموت"، وهي سفينة ذاع صيتها بالحب والتعاون، لكن جشع الطاقم كان نهايتهم.

انطلقوا إلى جزيرة نائية، مجرد قطعة يابسة وسط المحيط، خالية من الحياة والنبات، كأنها قبر بلا شاهد، تجاهلوا العاصفة، وأصرّوا على الوصول، وعندما نزلوا إلى اليابسة، رأى أحدهم كياناً يراقبه من بعيد، كان يتحرك بطريقة غير بشرية، ظله ممتد على الرغم من غياب الضوء.

انقسم الطاقم، وقاد القبطان ماهر فريقاً، بينما تولّى قاسم قيادة الآخر، في أثناء استكشاف قاسم، دخل مغارة تغطي جدرانها نقوش شيطانية، كانت الكلمات محفورة بلغة غريبة، تنزف مع كل محاولة لفهمها، وبينما كان يقرأ، هبّت عليه رياح باردة، كأن أنفاس شيء غير مرئي تلف عنقه.

ظهر رجل طويل، ذو قبعة سوداء واسعة، وشعر أحمر يشتعل كالنار، وعيناه لا تُرى من كثافة الظلال على وجهه، قال بصوتٍ منخفض لكنه مشحون بالقوة:

"ماذا يفعل الحمقى هنا؟"

دار بينهما حديث غريب، اتّضح فيه أن الرجل يعرف والدة قاسم،

التي ماتت أخيراً، حذره بصوت مشؤوم:

"كلهم سيموتون، أصدقاؤك، القبطان، حتى أنت لو خرجت الآن،

ابقَ هنا حتى ترى ضوء الشمس، ثم أبحر بالقارب الصغير الذي ينتظرك"

غاب الرجل فجأة، كأنه لم يكن سوى خيال، جلس قاسم يبكي، صوت صرخات زملائه يشقّ قلبه،

ثم ساد صمت ثقيل، لا يُسمع فيه سوى صرير الحشرات، وهنا..

ظهر ظلّ أسود عند مدخل المغارة.

كان طويلا، بلا ملامح واضحة، يمدّ يده، ويهمس:

"أمسك بيدي"

رفض قاسم وهو يبكي، فراح الكائن يتحوّل إلى أشكال مرعبة، ألسنة تتلوى من وجهه، أعين تخرج من أماكن لا يُفترض لها الوجود، جلد مشقوق تنبعث منه همسات وأصوات أطفال يبكون، ومع كل تحول، يقول:

"أمسك بيدي، وسأمنحك خلاصاً، أو جحيماً"

أخيرا، طلع الفجر، تراجع الكائن وهو يهمس:

"سأراك يا قاسم، وإن لم أرك، فسأقتل ذريتك ونسلك حتى آخر رمق"

ركض قاسم نحو الساحل، وصوت أقدام غريبة تتبعه، تخبط

الأرض خلفه كجيشٍ من الجحيم يطارده.

رأى القارب، قفز داخله، وأبحر بجنون، وحين ابتعد، التفت، فرأى الجزيرة مليئة بكائنات مشوهة تقف بأطرافها، تنظر إليه بأفواه مفتوحة، وأسنان تقطر دماً.

ومن بين الظلال، رأى الرجل ذا الشعر الأحمر يلوح له، قبل أن يختفي وسط الدخان.

اقترب قاسم من سفينتهم القديمة، فظن أنها خلاصه، لكن حين صعد، كانت الكارثة... جثث أصدقائه معلّقة بخيوط سوداء من السقف، تدور ببطء، ودماؤهم رُسمت على الجدران بنمطٍ غريب:

نجوم تحيط بجمجمة مبتسمة.

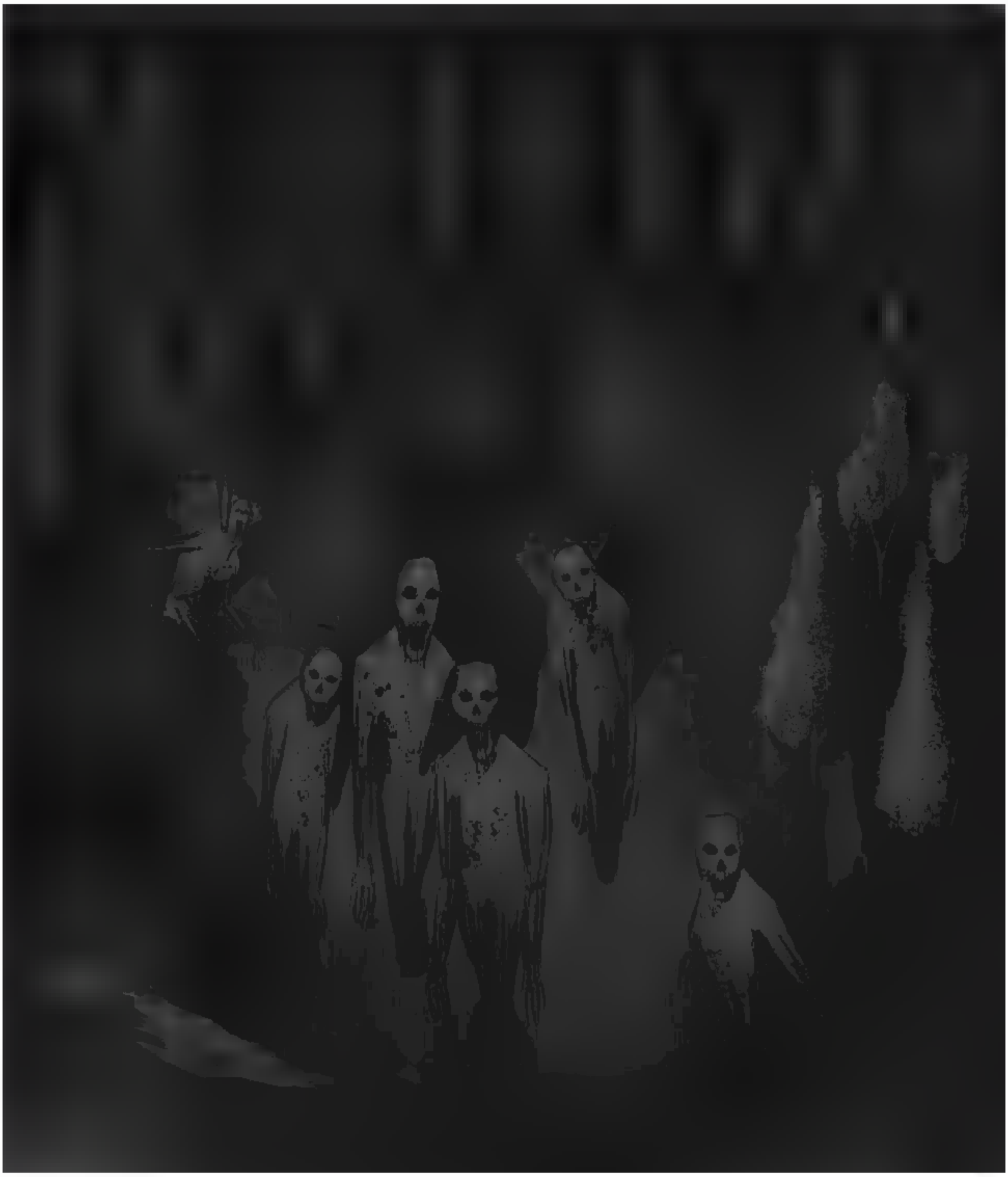

أغلقت آريا الكتاب، وارتجفت يدها، دمعة حارقة انسدلت على خدّها.

وفي تلك اللحظة، أضاء نور القمر الغرفة بالكامل، وبدا جلياً أن هناك من يراقبهم من النافذة، لم يكن جسداً واضحاً؛ بل ظلاً ينبض بالسواد، حدّق فيهما بلا أعين، فقط فجوتان فارغتان تنزفان سوادا.

مرّ اليومان التاليان بسلامٍ نسبي، لكن في اليوم الثالث، وقبل

وصولهما بنصف ساعة، رأت آريا الكائن نفسه عند النافذة، كان جلده مُجعّداً، خَشِناً كجذع محروق، ووجهه بلا أعين، فقط تجاويف مائلة إلى الداخل، فارغة كأنها تبتلع النور.

صرخت بهمس:

"آسر، رأيته مجدداً"

آسر أومأ بصوت خافت:

"رأيته أمس، لكن لم أرد إخافتك"

انطلق صوت البوق، وصلوا.

خرج الاثنان من الغرفة مصدومَين، الأرض مليئة بأشلاء بشرية، والهواء ممتلئ برائحة الحديد والموت، في وسط الميناء، وقفت مجموعة من البشر، عراة تماماً، على ظهورهم وشوم على شكل نجوم تحيط بجمجمة، يُمسكون بأيدي بعضهم، ويشكّلون دائرة كأنها طقس.

نزل آسر وآريا بخطوات مرتجفة، وما إن وطئت أقدامهما الأرض، حتى رفعا رأسيهما.

على طرف الميناء، وقف رجل بملابس قبطان، مغطى بالذهب، إلى جانبه ذلك الكائن، يلوح لهما ببطء، بينما يبتعدان وسط الضباب، إلى عمق الميناء، حيث الموت ينتظر.

٢٧٠٧٩٥١٣١١

اختبار الطريق

ما إن وطأت قدما آسر وأعزّ أصدقائه، آريا، أرضاً غريبة حتى شعرا بوطأة الغربة تهبُّ عليهما كريح باردة، كانت الأرض تحت أقدامهما لا تشبه شيئاً عرفاه من قبل، والضوء البعيد الذي يلوح في الأفق على بعد خمسة كيلومترات لم يكن سوى بصيص أمل ينقذهم من فزع ما رأوه للتو.

كان الصمت يخيّمهما، ليس من راحة؛ بل من هول الصدمة، لم يكن آسر يسمع سوى أنفاس آريا المضطربة، فاستدار نحوها، وقال بصوت مفعم بالندم:

"أعتذر، لم أقصد أن أريكِ كل هذا الرعب في سبيل مساعدتي"

لم تُجبه آريا؛ بل رمقته بنظرة طويلة، ثم اندفعت تعانقه، فخرج بكاؤها المكتوم، بكاء كتمته ساعات، لينفجر على صدره كأنها كانت تنتظر لحظة ضعف لتسمح لنفسها بالانهيار.

حين اقتربا من مصدر الضوء، بدت القرية أمامهما كأنها احتفال دائم؛ أضواء معلقة على المداخل، أطفال يركضون ويضحكون، مجموعة تتدرب على عروض مسرحية، وباعة متجولون يملؤون المكان بأصواتهم وروائح أطعمتهم.

توقف آسر عندما لمح رجلاً يبدو عليه الثراء والهيبة، فتقدّم إليه، وقال:

"مرحباً، هل أنت من أهل هذه القرية؟"

ابتسم الرجل، وقال:

"نعم؛ بل أنا حاكمها، والمسؤول عن كل من فيها، اسمي آدم"

آسر: "نحن تائهون، هل من الممكن أن تساعدنا؟"

صمت آسر لحظة، ثم سأل:

"هل تعلم أين تقع صحراء أندروميدا؟"

تغيّر وجه آدم قليلا وهو يردّ:

"لست من أهل هذه البلاد، أليس كذلك؟"

آسر: "صحيح"

آدم: "ولمَ تسأل عن مكان كهذا؟ تلك الصحراء مقبرة مفتوحة، من يدخلها لا يعود"

لم يجب آسر؛ بل نظر إلى آريا التي فهمت صمته، وتقدّمت لتقول بنبرة مرتجلة:

"نحن مستكشفان فقط، نبحث عن أماكن جديدة للبحث والدراسة"

ابتسم آدم ابتسامة خفيفة وكأنه أدرك كذبتها، وقال:

"حسناً، ستكونان ضيفَيّ إلى أن يعود أخي من رحلته، هو الوحيد الذي دخل أندروميدا وعاد حياً، ويعرف دروبها"

رافقهما إلى منزله، وكان أضخم بيت في القرية، يجاوره نهر رقراق، وحديقة صغيرة تنبعث منها رائحة الورد والياسمين، جلسوا

في الحديقة، حيث بدأت السماء تميل نحو غروب خافت.

دخلت فتاة، فوقف الزمن لحظة...

وحين وقعت عينا آسر عليها، تجمّد في مكانه، عاجزاً عن الرمش كأنه خشي أن يغمض عينيه، فتتلاشى كأنها حلم جميل على وشك أن يُسلب منه.

كانت تمشي بخُطى هادئة، كأنها نُسجت من نسيم الصباح.

عيناها واسعتان، بلون البندق الدافئ، تحكيان حكايات لا تنتهي، فيها وقار الصحراء ولمعة الندى.

شعرها قصير، داكن كليل عربيّ، ينسدل تحت شال خفيف يغطّي رأسها وعنقها المليء بالأنوثة الخجولة، وكأنها تخفي فتنة لا تبوح بها إلا للقدر.

تقدّم آدم إلى جانبها، وقال بصوت هادئ:

"هذه ابنتي، أمارا"

كان آسر لا يزال شاخصاً نحوها، مأخوذاً بهدوئها، بنظرتها التي تلتقيه، ثم تفرّ، كأنها تعلم أثرها ولا تريد أن تزيد النار اشتعالا.

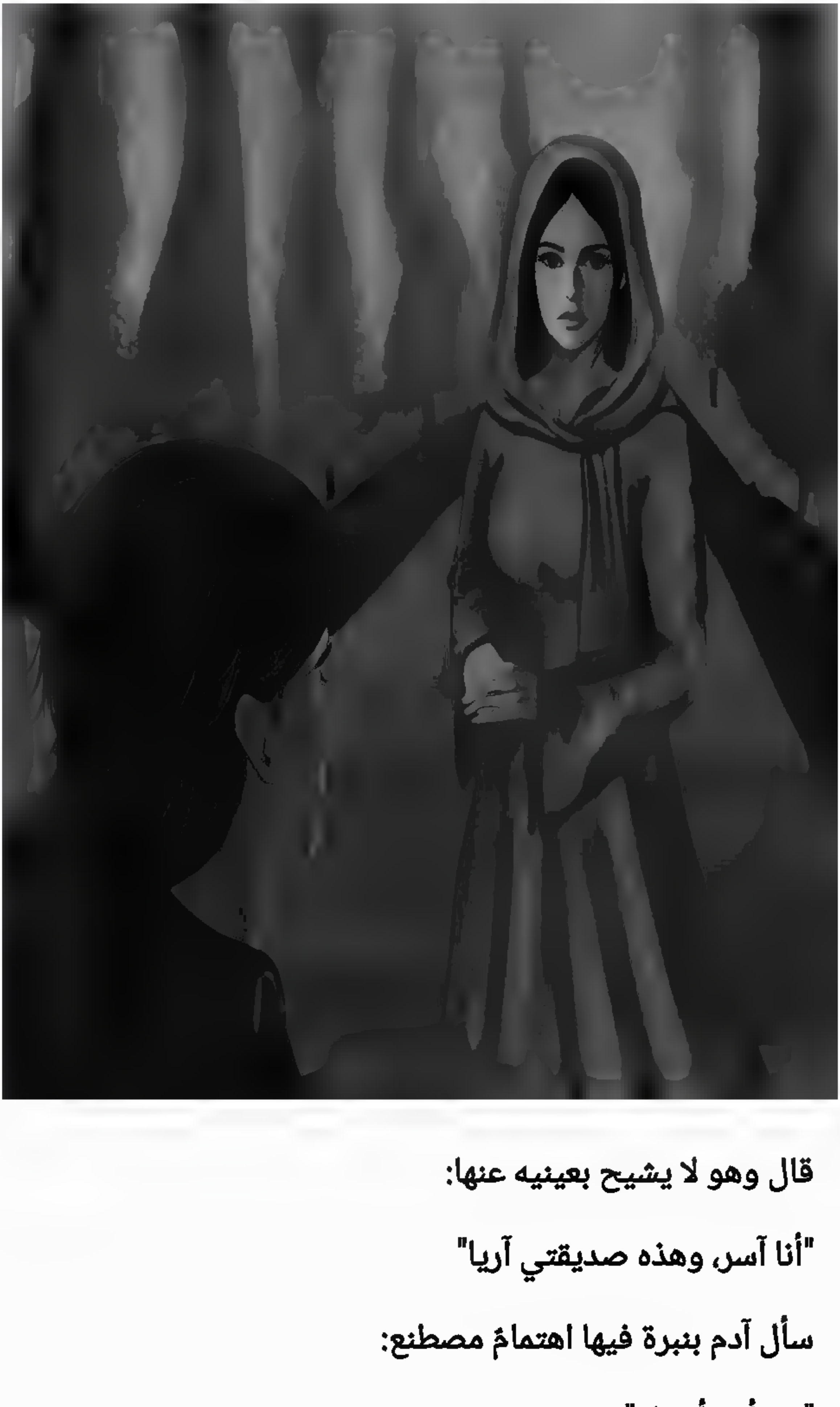

قال وهو لا يشيح بعينيه عنها:

"أنا آسر، وهذه صديقتي آريا"

سأل آدم بنبرة فيها اهتمامٌ مصطنع:

"من أين أنتما؟"

ردّ آسر ببساطة:

"من مدينة أرجان، هل سمعت بها من قبل؟"

هزّ آدم رأسه، وقال باقتضاب:

"لا، لم أسمع بها"

في تلك اللحظة، انتبهت آريا إلى شيء لم تستطع تجاهله، كانت أمارا تجلس صامتة، عيناها منخفضتان، لكن ما كشف عنقها فجأة أثار ريبة آريا، كدماتٌ وخدوش خفيفة، كأنها آثار عنف قديم، رفعت أمارا يدها بسرعة لتغطي عنقها عندما شعرت بنظرات آريا، وتمتمت بصوت خافت:

"أبي، سأدخل الآن"

لكن آدم أمسك بيدها بقوة أثارت انتباه آسر، وسحبها لتجلس، ثم قال بنبرةٍ مُحذّرة، لكنها مغطاة بستار اللباقة:

"ضيوفنا يا أمارا، عليكِ أن تكرميهم"

لم تُجبه؛ بل سكتت كما لو كان الأمر خارج إرادتها.

دخل أحد مساعدي الحاكم فجأة، وهمس في أذنه، فنهض وقال لآسر:

"لدينا اجتماع عند الفجر، حتى ذلك الحين، سترشدكما أمارا إلى أماكن النوم،

نوما هنيئاً"

غادر آدم بخطوات ثابتة، تاركاً خلفه إحساساً خفياً بالخطر، ونظرة في عينيه لم تُفارق أمارا، نظرة ليست لأب.

قالت أمارا بهدوءٍ مصطنع:

"اتبعاني"

قادتهما إلى غرفتيهما، وكانت آريا مرهقة، فاستسلمت للنوم سريعاً، أما آسر فظل مستيقظاً، عيناه معلّقتان بسقف الغرفة، وعقله يفكر في تلك الفتاة، كان شيئاً أكثر من مجرد نظره عابرة، ابتسم آسر ببطء، كأن جمالها كان مفتاحاً خفياً يفتح أبواباً في روحه، وأثرها بدا كنسمة هادئة تلامس قلبه وتوقظه من صمته.

"هل أنا مفتون بها؟ أم أنني فقط مرهق؟"، تمتم في نفسه، ثم ابتسم حين تذكّر نظرتها، لكن طرقات متتالية على الباب قطعته من خياله.

فتح الباب، وإذ بها أمارا.

كانت متوترة، عيناها تتحاشيان النظر إليه مباشرة، سألها بقلق:

"سيدتي أمارا، هل تحتاجين إلى شيء؟"

قالت أمارا بصوت متهدّج:

"هل يمكننا التحدث قليلاً في الخارج؟"

أومأ موافقاً، وارتدى معطفه، وسارا معاً إلى حافة النهر.

جلسا على صخرة مستوية، وكان الليل ساكناً إلا من صوت تدفق الماء، ظلت صامتة، فبادرها آسر:

"ما الموضوع؟"

قالت أمارا بنبرة خافتة:

"يريدون قتلك"

اتسعت عينا آسر:

"من؟ ولماذا؟"

أمارا: "أبي، وبعض رجال القرية؛ لأنك سألت عن صحراء أندروميدا"

آسر: "سألت عنها فقط!"

أمارا: "وهذا وحده كافٍ لاتهامك بالسحر، تلك الأرض مُحرّمة، واسمها وحده يجلب الشؤم في عرفهم، من يدخلها لا يعود، ونشأ فيها سحرة الأرض من أقواهم حتى أضعفهم"

قال آسر بقلق:

"كيف عرفتِ هذا كله؟"

أمارا:

"لدي طرقي، وأبي ينتظر عمي، الذي تعامل مع سحرة أندروميدا في شبابه، ويثق بحكمه، وإن أخبره إنك ساحر، فلن تُشرق شمس الغد عليك"

سألها آسر، وقد شعر بالخطر يقترب:

"وهل تظنين أنني ساحر أو سيئ؟"

نظرت في عينيه، وفي صوتها صدقٌ خافت:

"لا، لا أراك هكذا"

آسر: "إذاً، لماذا ساعدتني؟ أخبرتني خطة والدك؟"

أجابت بعد لحظة من التردد:

"لأني أريدك أن تساعدني"

نظرت إليه، ثم بحركة بطيئة، أزاحت طرف شالها، فكشف عن عنقها وجانبٍ من كتفها، وكان مغطى بكدماتٍ وندوب، بعضها حديث وبعضها قديم، غضّ آسر بصره فورا، وهمس:

"هل هو من فعل بكِ هذا؟"

أمارا: "حاولت الهرب مراراً، لكنه دائماً يعيدني، لا توجد قرية قريبة، ولا أحد يحميني، إنه يمنعه، ولكن لا أريد منه أن يأذي أبي؛ لذلك أصمت عن أذيته"

سألها آسر وهو في حيرة:

"من؟ من يمنعه؟"

رفعت أمارا يدها، وأشارت إلى خاتمٍ يزيّن إصبعها، مُرصّع بالعقيق الأحمر، ثم همست:

"بسببه"

لمست الحجر، وهمست بكلمة:

"اظهر يا آرام"

وفي لحظة، ظهر رجل يجلس بينهما.

تجمّد آسر، كان الرجل مهيباً، ذو جسدٍ قوي، وشعر حالك كسواد الليل، وعينين خضراوين حادتين، فيهما حقد دفين، قال بحدة:

"رأيت نظراتك إليها، فابتعد عنها، أحسن لك"

قال آسر وهو يحاول استيعاب الموقف:

"من هذا؟ جنيّ؟"

أجابت أمارا:

"لا، إنه شيطان، اسمه آرام"

وقف الجو بينهما مشحوناً، وكأن آسر يحاول استيعاب فكرة أن يكون إلى جانبه كائن غامض من عالم مختلف.

أخذ آسر نفسا عميقاً، وقال:

"هل تعرف صحراء أندروميدا؟"

ردّ آرام بثقة:

"إنها موطني، أعرف كل زاوية فيها"

آسر: "إذاً ستأخذنا إليها، أنت ومعنا أمارا"

ترددت أمارا، عندها قال آسر:

"ستأتون جميعكم، أنا لا أذهب لاستكشاف؛ بل للبحث عن شخص ما اسمه (قاسم)"

عند ذكر الاسم، تفيرت ملامح آرام كأن ضوءاً فاجأه في الظلام.

قال بصوت باهت:

"قاسم؟ هل قلت قاسم؟"

آسر: "نعم، ما به؟"

آرام: "إنه البشري الوحيد الذي دخل عالمنا وخرج سالماً، قيل إن له من يحميه، وقيل إن خاتمه السحري يحصّنه، الكل يخشاه، حتى أقوى شياطيننا"

ثم حكى عن ذلك اليوم الذي واجه فيه قاسم شيطاناً يُدعى "ظلام"، وكيف أنه بكلمة واحدة قتل الظلام.

صمت الجميع، ثم أضاف آرام :

"قاسم هو من حررني، كنت مسجوناً في هذا الخاتم، حتى أخرجني بقوة غريبة، ثم أُعطيته لأمارا لتحميني وتحميها، ولم أفارقها منذ كانت طفلة"

اقترب آسر منهما، وقال بثقة:

"أمارا، آرام، أريدكما معي في رحلتي، لا أستطيع أن أترككما هنا، أشعر أن لي واجبا تجاهكما"

نظرت أمارا إلى آرام، فأومأ لها، ثم قالت:

"نحن موافقان"

لكنّ آرام انتفض فجأة، وقال:

"هناك من يقترب!"

قال آسر بسرعة:

"اذهبا إلى مخرج القرية وانتظراني هناك، سأوقظ آريا، ونلحق بكما"

هرع آسر إلى الغرفة حيث تنام آريا، وفتح الباب بهدوء، ثم همس:

"آريا، استيقظي"

تقلبت في فراشها، وقالت بنعاس:

"ما بك؟ لم تشرق الشمس بعد"

قال بلهجة جادة:

"لا وقت للشرح الآن، اجمعي أمتعتك بسرعة، نحن في خطر"

جلست على الفور وقد ارتسم الخوف في عينيها:

"من؟ من يهددنا؟"

آسر:

"سأشرح لاحقاً، فقط ثقي بي، وافعلي ما أقول"

جمعت آريا حاجياتها، وخرجا معاً إلى الليل الذى لا يزال حالكاً، عند مخرج القرية كانت أمارا تنتظرهما، وإلى جانبها آرام، وثلاثة أحصنة قوية، قالت أمارا وهي تمسك بلجام أحدها:

"جلبتها من الإسطبل قبل أن يكتشف أبي غيابنا، علينا أن نبتعد قدر الإمكان قبل بزوغ الفجر"

امتطى الثلاثة ظهور الأحصنة، وابتعدوا عن القرية بخطى متسارعة، يلفّهم الصمت والقلق، وقبل أن يختفي صوت خطواتهم عن أرض القرية، تمتمت أمارا وهي تنظر خلفها:

"وداعاً... يا قريتي، يا لعنتي القديمة"

مع أول خيطٍ من ضوء الصباح، اقترحت آريا أن يستريحوا قليلاً، فترجلوا، وجلسوا تحت ظل شجرة وارفة، مدت أمارا يدها نحو خاتمها، ولمسته، وهمست:

"اظهر يا آرام"

وفجأة، ظهر إلى جانبهم آرام، وهذا أفزع آريا التي قفزت قليلاً إلى الخلف، ثم تمتمت بذهول:

"هل هذا... شيطانك يا أمارا؟ ما اسمه؟"

أجابت أمارا بابتسامة خفيفة:

"نعم، إنه آرام"

لكنه قاطعها قائلاً بصوت رخيم:

"اسمي (آرام)، ويمكنك سؤالي مباشرة، لا حاجة إلى الوسيطات"

اقتربت آريا من آسر، وهمست بصوت يُسمع بصعوبة:

"تخيلته أوسم، لكنه ليس بذلك الحد، حتى وهو غاضب... وسيم، لكنه مخيف قليلاً"

ابتسم آسر، وضحكت أمارا، وارتسمت على شفاه آرام ابتسامة

خفيفة فيها غرور مكتوم.

لكنّ اللحظة لم تدم طويلاً.

فجأة، سقط آسر أرضاً بلا سابق إنذار، ركضت آريا نحوه، تهزّ كتفيه، وتصرخ:

"آسر! آسر!"

فتح آسر عينيه، لكن عينيه كانتا سوداوين تماماً، لا بياض فيهما، ثم انفجر ضاحكاً ضحكة هستيرية، وقال بصوت غريب:

"آتي به لي، يا آرام... وحده، لا أريد أن تعود الفتاتان بأرواحٍ أخرى"

وبمجرد ما أنهى كلماته، عاد وجهه طبيعيّاً، واختفى السواد من عينيه، ثم نهض مرتبكاً، وقال:

"ماذا حدث؟ لماذا تنظرون إلي هكذا؟"

روت له آريا ما جرى، فعقد حاجبيه في توتر، ثم نظر إلى آرام، وقال:

"أريد أن أتحدث إليك على انفراد"

ابتعدا قليلا، وسأله آسر:

"هل تستطيع الشياطين نقل البشر من مكان إلى آخر بسرعة البرق؟"

أومأ آرام:

"نعم"

آسر: "إذاً، انقلني إلى أندروميدا، وخذ آريا وأمارا إلى مكان آمن، إلى أرجان، واحرص على سلامتهما، لا تتركهما وحدهما لحظة"

آرام: "كنت أود مرافقتك إلى قاسم"

آسر: "لا، لا يمكن أن أتركهما من دون حماية"

صمت آرام، ثم قال:

"كما تشاء"

ذهب آسر إلى آريا وأمارا، وبدأ شرح ما سوف يحدث، وكانت كالآتي:

"سوف يكون آرام معكما، وسيحافظ على سلامتكما إلى أن أرجع من أندروميدا"

حاولت آريا النقاش، ولكن رفع كفه في وجهها، يوضح لها عدم رغبته بالنقاش،

أكملوا سيرهم للبحث عن مأوى لهم بعيداً عن الناس، وجدوا كهفاً في جبل بعيد عن الأنظار، فقرروا أن يباتوا فيه للاختباء من والد أمارا، وبالفعل دخلوا إلى الكهف، وكان كهفاً عميقاً جداً ذا فتحات تودي إلى مسارات منفصلة، فلم يرغبوا باكتشاف الكهف، فاستلقى الأربعة، وذهب آرام إلى أقرب مدينه للتزود بالمياه والطعام، عند ذهاب آرام، قالت أمارا لآسر:

"سوف أعطيك خاتمي الذي أستدعي به آرام، في حال كنت في خطر المس حجر الخاتم، وسوف يأتي لنجدتك، انتبه إلى نفسك يا

آسر"

في هذه اللحظه من دون سابق إنذار وجد قلبه يميل، وعقله يتبع، وأصبح يراها وحدها، اكتشف أنه وقع في أسرها، في حبها، وكان أول ما سحره فيها عينيها، فنظر إلى حدقيتهما نظرة سكنت في قلب أمارا، وتركت في قلبها رجفة لا تنساها أبداً، كذلك لآسر.

أتى آرام بالمياه والطعام، وتقاسموه بعضهم بين بعض، وعندما بدأت الشمس تغيب وفرغوا من الطعام، خيم السكون في المكان، وأغمضوا جميعهم أعينهم مستسلمين للنوم بعد إرهاق وتعب دام وقتاً طويلاً، في أثناء نومهم رأى آسر رؤية لامرأة محبوسة في كهف بعمق البحر، تطلب منه المساعدة بملامح مرعوبة، استيقظ وهو خائف مما رأه، ولم يستطع العودة لنومه إلى أن ظهر أول نور للشمس في السماء، أول من استيقظ كان آرام، وبدأ وآسر الاتفاق على ما سيحدث، وكانت الخطة أن آرام سينقل أمارا وآريا إلى أرجان مسقط رأسه، وبعدها بأيام سيزور آسر في أندروميدا، قرر آسر الرحيل الآن مستغلاً خلود آريا وأمارا للنوم، وفعلاً أوضح رغبته لآرام.

آسر: "انقلني يا آرام"

آرام: "لا تريد أن تودعهما؟"

آسر: "ليس وداعاً، سألتقيكم قريباً"

آرام: "حسناً، اغمض عينيك، ستشعر بنسمات هواء عالية، فلا تجزع، ولا تفتح عينيك، وفي ثوانٍ ستصبح في أندروميدا"

وفعلاً طبق آسر كلام آرام، وفي غضون ثوانٍ أصبح في أندروميدا، عندما فتح عينيه، وقف في منتصف تلك الصحراء الشاسعة، يدور بعينيه في كل اتجاه، وكأن النظر لا يكفي لاحتواء هذا الاتساع، دُهش من امتداد الرمال بلا نهاية، ومن صمتها العميق الذي يملأ القلب رهبةً وجمالاً، وهمس في نفسه بدهشة:

"كيف لفراغٍ كهذا أن يكون بهذا الجمال؟"

عندها آرام قال: "عندما تقابل سكانها ستراها جحيماً"

آسر: "أين بيت قاسم؟"

آرام: "لا تُحاول فهم الصحراء، فقط سر معها، وستأخذك إلى حيث ينبغي أن تكون" واختفى آرام، وبقي آسر يتلفت في الصحراء بعينين مدهوشتين، ويرى امتداد الرمال من كل جهة، وقف حائراً، وتبعها بخطى واثقة في درب لا يعرف نهايته، لكنه شعر أنها البداية.

وصل آرام إلى الفتاتين، وقال لهما بهدوء:

"آسر قرر أن يغادر اليوم، وطلب مني أن أوصلكما إلى أرجان، وأحرص على سلامتكما حتى يعود"

كانت ردة فعل الفتاتين غاضبة وغير مُتوقَّعة؛ فقد اتّسعت عينا آريا، وقالت بانفعال:

"كان عليه أن يخبرنا بنفسه! لا أن يفاجئنا هكذا، ويختفي من دون وداع حتى"

أما أمارا، فاكتفت بالصمت، ثم قالت بنبرة هادئة، لكنها حاسمة:

"أوصلنا إلى أرجان يا آرام، وعُد إليه"

ابتسم آرام بهدوء، ثم رفع يديه، وبدأت الأضواء تتلألأ حولهم كوميض سريع، وفجأة اختفى الثلاثة من المكان، ليظهروا في لحظة واحدة وسط أرجان، المدينة العريقة التي تعج بالحركة والأصوات، حيث تنتظرهم تحديات جديدة، وأسرار كثيرة تكشف عن ماضيهم ومصيرهم.

وفي أثناء سير آسر وحده في الصحراء، لفتت نظره مجموعة من الناس، غريبو الهيئة، ملامحهم وعِدتهم كأنهم قادمون من زمنٍ قديم، يسيرون بصمت وسط أرضٍ قاحلة لا أثر فيها للحياة.

توقّف متعجّبا، وقال في نفسه:

"من يكون هؤلاء؟ لعلّهم يعرفون شيئاً عن قاسم"

اقترب منهم، وسلّم:

"السلام عليكم"

لكنهم لم يردّوا، ولم يلتفت إليه أحد.

أعاد السلام مرةً، ثم ثانية، ولا أحد منهم حرّك ساكناً.

حتى إذا نطق قائلاً:

"هل يعرف أحد منكم شيئاً عن قاسم؟"

فجأةً، توقّفوا جميعهم عن السير، واستداروا نحوه في وقتٍ واحد، كأنّ اسمه أيقظ فيهم أمرا دفيناً.

حين استداروا جميعهم نحوه، شعر آسر بقشعريرةٍ تسري في جسده، كانت نظراتهم جامدة، غريبة، كأنها تخترق روحه، لم يقتربوا، ولم يتكلم أحد، حتى تقدّم منهم رجلٌ بدا كأنه الأكبر سناً، لحيته بيضاء كثيفة، ووجهه محفور بالتجاعيد وكأنه عاش ألف عام.

قال بصوتٍ عميق أجوف:

"قاسم؟ من أتى باسمِه في أرض النسيان؟"

تردّد آسر، ثم أجاب:

"أبحث عنه، إنه مهمّ لي"

رمقه الرجل بنظرة طويلة، ثم أشار بيده إلى رمالٍ خلفهم، وقال:

"من يعرف قاسم لا يعود كما كان، وإن أردت أن تراه، فعليك أن تختار بين طريق لا يُرى، وبابٍ لا يُفتح إلا لمن فقد شيئاعزيزاً"

سكت برهة، ثم أكمل:

"اتبعنا، فإن كنت حقاً مُستعِداً ستصل"

ومن دون كلمةٍ أخرى، بدؤوا السير مجدداً، بخطى بطيئة كأنهم يمشون بين الزمن والعدم، بقي آسر في مكانه لحظات، يُفكر، ثم شدّ على نفسه، وتبعهم.

تبع آسر خطواتهم، كانت أقدامهم لا تترك أثراً على الرمل، كأنهم أطياف تسير لا أجساد، لم ينبس أحد منهم بكلمة، والصمت بينهم كان ثقيلاً، كأن الصحراء نفسها تستمع.

بعد مسافة بدت وكأنها خارج حدود الزمن، توقّفوا أمام تلّ رملي منخفض، ثم أشار الرجل المسن إلى الأرض، وقال:

"هنا يُخبّأ السر، لكن لن يُفتح لك الباب حتى تُجبر على أن تخسر شيئاً، كما خسر قاسم"

تقدّم آسر بخطوات مترددة، وعيناه تبحثان عن شيء مفهوم، وقال بصوتٍ فيه رجاء:

"فقدت الكثير، فقدت أناساً، أماناً، وفقدت نفسي مرات عدة، فهل هذا يكفي؟"

صمت العجوز، ثم انحنى ولمس الرمال بيده، وفجأة اهتزّ المكان، وتشققت الأرض أمام آسر ببطء، كاشفة عن درجٍ حجريٍّ مظلم ينزل إلى عمق لا يُرى آخره.

قال الرجل:

"انزل، لكن اعلم أن ما ستراه هناك قد يُغيّرك إلى الأبد"

نظر آسر إلى الظلام، وقلبه ينبض بقوة، لكنه لم يتراجع:

"من أجل الحقيقة، ومن أجل قاسم، أنا مستعد"

ثم بدأ النزول، خطوة بعد خطوة، بينما أُغلقت فتحة الدرج خلفه تدريجياً، تاركةً الصحراء صامتة من جديد، كأن شيئاً لم يكن.

كان الظلام كثيفاً، لا يُرى فيه ضوء، ولا يُسمع فيه صوت سوى صدى خطوات آسر على الحجارة القديمة، كل خطوة كانت تُشعره أنه يقترب من شيء، شيء عميق لا يشبه ما فوق الأرض.

وفجأة فُتح ممرّ ضوئي أمامه بلا مصدر واضح، كأن الجدران نفسها بدأت تُضيء بوميضٍ خافت، في نهايته ظهرت بوابة دائرية من الحجر الأسود، وعليها رموز لم يرَ مثلها من قبل.

وما إن اقترب منها حتى سمع صوتاً داخله لا يشبه أي صوت بشري، كان وكأنه يأتي من داخله هو:

"أنت دخلت ذاكرة قاسم، هنا لا زمان ولا مكان؛ بل مشاهد مما خَبِرَه قلبه"

فُتحت البوابة بهدوء، ليجد نفسه في غابة مظلمة، السماء حمراء، والهواء ساكن، رأى هناك طفلا صغيراً يجلس وحده على صخرة، يبكي بصمت.

اقترب منه، فسأله بلطف: "من أنت؟"

رفع الطفل وجهه، وكان وجه قاسم وهو صغير، وقال:

"أنا بداية الألم، أنا لحظة الفقد الأولى"

وما إن قالها حتى تحوّلت الغابة إلى مشهد آخر.

قاسم شابٌ يركع أمام جثة شخصٍ يحبه، يصرخ بلا صوت، ويداه ملطختان بالدماء.

شهق آسر، وقال في نفسه: "كل هذا عاشه قاسم!"

توالت المشاهد...

خيانة، ضياع، حروب، حبٌ خذله، ووعود لم تُوفَ.

وكل مشهد كان يُثقِل قلب آسر، حتى شعر أنه يحمل وجع قاسم بنفسه.

ثم ظهر المشهد الأخير

قاسم يقف وحيداً، ينظر إلى مرآة مكسورة، ويقول:

"كل من اقترب ضاع، فهل تجرؤ على المجيء إليّ يا آسر؟"

وفجأة اختفى كل شيء، آسر سقط على ركبتيه يتنفس بصعوبة، ثم سمع ذلك الصوت من جديد.

إن كنت ستبحث عن قاسم، فتذكّر، لن تخرجه من ظلامه حتى تُضيء ظلك أولاً، ثم فُتح باب خلفي وفيه ضوءٌ خافت يدعو آسر للمضي.

دخل آسر إلى الغرفة بهدوء، كانت أضواء خافتة ترتجف على الجدران، كأن المكان يتنفس، لم تكن الغرفة كهفاً، ولا سرداباً؛ بل كأنها مكتبة قديمة مخفية تحت الأرض مليئة بالكتب، والخرائط، والرموز الغريبة.

قلب الغرفة، جلس رجل على كرسي خشبي بسيط، ظهره إلى الباب، وخصلات شعره البيضاء تنسدل على كتفيه، كان يرتدي عباءة داكنة، وحوله ذئاب كثيرة مستلقية بهدوء كأنها حراسه لا وحوشه.

استدار الرجل بصوت هادئ، وقال من دون أن يبدو عليه الذهول:

"آسر، كنت أعلم أنك ستأتي"

تجمد آسر، لحظة لم يتوقع أن يكون قاسم رجلاً عادياً بلا هالة من

سحر أو قوة، كان وجهه متعباً، وعيناه حادتين كأنهما تخبئان ألف حكاية دفينة.

قال آسر وهو يتقدم ببطء:

"وصلتني رسالة عن أبي، عن رومان، الرسالة تقول إنك تعلم كل شيء"

تنهد قاسم، وأشار إليه للجلوس:

"اجلس يا آسر، الظلال كثيرة هنا، لكن أحياناً الكلام ينقيها"

جلس آسر وقلبه يخفق، والذئاب تفتحت أعينها تراقبه بصمت.

قال قاسم وهو يحدق في النار المشتعلة أمامه:

"أبوك لم يكن مجرد جني، ولا مجرد زوج لابنة ملك، كان فتيلاً لحرب أعظم من أن تُفهم، وقصته طويلة، لكنها ما انتهت"

رفع آسر حاجبيه: "يعني هو حي؟"

قاسم لم يرد مباشرة؛ بل قام وسحب خريطة قديمة من رف قريب، وبسطها أمام آسر:

"إذا كنت تريد أن تعلم الحقيقة، عليك أن ترجع إلى نقطة البداية، إلى المكان الذى اختفى فيه فى الليلة الأربعين التى ما ظهرت فيها الشمس أبداً"

حين اقترب آسر من الخريطة القديمة، بدت خطوطها تتلألأ كأنها تنبض بالحياة.

قال قاسم بصوت خافت: "هنا حيث كانت هناك معركة سرية بين قوات ملك البحار محرز وجنوده، وجيش الجان بقيادة رومان بعد الحرب الكبيرة، في تلك الليلة غاب رومان عن الأنظار، ولم يُرَ بعدها، أما سبب اختفائه فهو سر لم يُكشف بعد، لكنه مرتبط بعهد قديم بين عائلتك وعائلة والدتك، قديم جداً، وصعب فهمه، لكنه المفتاح لفك اللغز"

قال آسر متوتراً: "وماذا عن لينا؟"

رد قاسم: "لينا ليست فقط ابنة ملك البحار؛ بل هي محور خطة محرز لبسط نفوذه والسيطرة على عوالم البحار والجن، لكن ما لا تعرفه أن لينا وقعت في حب رومان، وهذا الحب قد يكون سبب نجاته أو نهايته..."

هنا توقفت الذئاب عن الحركة وكأنها تستمع جيداً، ثم قال قاسم وهو ينظر في عيني آسر:

"مهمتك الآن ليست فقط العثور على والدك؛ بل حماية لينا أيضاً؛ لأنها مفتاح كل شيء"

وكانت الغرفة تغمرها هالة غامضة من الأمل والخطر في آن واحد، رفع آسر رأسه مصمماً على المضي قدماً في رحلته نحو الحقيقة مهما كلف الأمر.

ابتسم قاسم، وقال بهدوء:

"آسر، الطريق أمامك لن يكون سهلاً، والظلال التي تحيط بنا أكبر مما تتصور، لكنك لست وحدك، هناك أسرار كثيرة لم تروها بعد،

وهناك من يراقبك من بعيد، من يهمه أمر عائلتك أكثر مما تتخيل، استعد جيداً؛ لأن كل خطوة تخطوها تقربك من حقيقة قد تغيّر مصيرك ومصير ممالك البحار كلها"

ثم أشار إلى الباب الخلفي، وقال:

"لنبدأ رحلتنا من هنا، هذا الممر يؤدي إلى غرفة الاجتماعات القديمة، حيث تجتمع قوى الجان والبحار في سرية تامة، هناك ستجد أدلة قد تساعدك في كشف أسرار والدك"

تنفس آسر بعمق، وشعر بوزن المسؤولية على كتفيه، لكنه كان مستعداً، قرر أن يواجه كل ما سيأتي، وأن لا يدع أي سر يبقى مدفوناً في الظلام أبداً، فانطلق الاثنان معاً نحو الممر المظلم، حيث يختبئ الماضي في طياته، ومستقبل جديد ينتظر أن يُكتب بيد آسر.

سار آسر خلف قاسم في الممر الحجري الطويل، والجدران من حولهما تغصّ بنقوشٍ قديمة وأصواتٍ خافتةٍ كأنها همسات من زمنٍ مضى، كانت الخطوات صدى، والهواء يزداد برودة كلما تعمّقا أكثر، توقف قاسم فجأة أمام بابٍ صخري ضخمٍ، وعليه رمز غريب يتوهّج بخفوت.

وضع قاسم كفه على الرمز، وقال:

"هذا الباب لا يُفتح إلا لمن يملك دماً من آل زايريس، افتحه أنت يا آسر"

تردّد آسر قليلاً، ثم مدّ يده ووضعها فوق الرمز، فاشتعل بنورٍ أزرق باهر، وبدأ الباب يُفتح ببطء مُطلقاً أنيناً يُشبه صراخاً مكتوماً، خلفه

كانت غرفةٌ دائرية، تضيئها كريستالات زرقاء متدلّية من السقف، وفي وسطها طاولة مستديرة محفوزٌ عليها خريطة غريبة، وتحيط بها سبعة كراسي فخمة، لكل واحد منها رمز مختلف.

قال قاسم:

"هذه خريطة البحار القديمة، وأحد الرموز هنا يشير إلى مكان اختفاء رومان، والدك لم يمت، آسر؛ بل اختفى في ظروف غامضة بعد أن خان عهداً مقدّساً"

تقدّم آسر ببطء، يحدّق في الخريطة، وقال بصوت خافت:

"خان؟ أي عهد؟"

قاسم:

"رومان كان حارس الاتفاقية بين ممالك البحر والجان، كان مُقرّراً أن يُسلّم شيئاً ثميناً لا يمكن أن يقع في الأيدي الخاطئة، لكنه خبّأه، وأخفى سره حتى عنّي"

آسر وقد تلبّسته الحيرة:

"وما هذا الشيء؟"

قاسم:

"السرّ المدفون، الحجر النقيّ، إذا وُضع في يدٍ ظالمة، سيحوّل البحر جحيماً، ويُحرّر الظلال من أعماقها، وربما هذا ما يسعى إليه محرز الآن"

تجمّد آسر في مكانه؛ إذ إنه بدأ أخيراً يرى الصورة الكبرى، والده

لم يكن مجرّد مفقود؛ بل كان مركز كل شيء، وسرّه لا يزال حياً، ومطلوباً.

اقترب قاسم من الطاولة، مرّر يده على الخريطة، فبدأت تتوهّج خطوط خفية لم يرها آسر من قبل، ثم ظهرت دائرة صغيرة قرب طرف الخريطة، كان الضوء فيها أكثر حدّة.

قال قاسم بنبرة ثقيلة:

"هذا هو المكان، الجزيرة المحرّمة، آخر موقع ظهر فيه رومان قبل أن ينقطع أثره تماماً، من الممكن أن لا يكون موجوداً، ولكن سنرى"

آسر:

"ولماذا لم تذهب إليه إن كنت تعرف؟"

قاسم، وهو يُشيح بنظره:

"لأنني كنت خائفاً، ليس من رومان؛ بل مما قد أكتشفه عنه، لا أحد يعرف ماذا أصبح، هناك من يقول إنه تحوّل، وإن الظلال التهمته، وإنه لم يعد كما كان"

آسر: "حتى لو تغيّر، يبقى أبي، وسأذهب"

قاسم تنهد ببطء، وقال:

"ستحتاج إلى من يرشدك، الجزيرة محمية بسحر قديم، لا يستطيع دخوله إلا من يحمل دمه، وقطعة من إرثه"

اقترب من رف حجري خلفه، أزاح صندوقاً صغيراً وفتحه، كان في داخله خنجر قديم، مقبضه محفور عليه علامة الجان، ونصلُه يتوهّج

بلون يشبه زرقة البحر لحظة الفجر.

"هذا خنجر رومان، خبأته بعد اختفائه، كانت وصيّته الوحيدة لي: "إذا جاء ولدي، أعطه هذا، وقل له لا تثق حتى في الضوء، فبعضه مزيف)"

أخذ آسر الخنجر بيده، شعر بحرارة غريبة تنبعث منه، كأن النصل تعرّف إليه، لحظة صامتة مرّت بينه وقاسم، ثم قال:

"هل سترافقني؟"

ابتسم قاسم، ولكن في عينيه ظل خافت:

"نعم"

خرج آسر من الغرفة، وقاسم معه، والخنجر في حزامه، والعزم في قلبه، كانت الجزيرة تنتظره، ومعها حقيقة والده، وربما...

لن أتركه في الظلال وحده

آريا (وهي تفتح باب بيتها):

"ها نحن قد بلغنا مسكنى فى أرجان، بيتٌ بسيطٌ، لكنه يحمل بين جدرانه ذكريات لا تُنسى"

أمارا بنظرات متعجبة:

"بيت بسيط؟ أرى أن كلماتك توزّع الرقة، فما هذا الباب الثقيل، وكأنه بوابة لقلعة قديمة"

آرام: "حقّاً، كأننا دخلنا إلى قصّةٍ من قصص ألف ليلة وليلة، وأتساءل إن كان هذا المكان يخبئ لنا كنوزاً أو أسراراً خفية"

آريا:

"ليست هنا كنوزٌ مادية، لكن هناك سرّ دفين في الزوايا والأركان، قد يجد أحدنا فيه ضالته"

أمارا: "والآن، هل هناك مكان نرتاح فيه، أم سنبدأ أولى مغامراتنا بالنوم على الحجر؟"

آريا:

"لا تقلقا، ستجدان فراشاً متواضعاً، لكنه أنعم من أن تستقبلا به الأرضَ"

آرام: "أتمنى ألا يكون الفراش من قشّ أو من أوراق الشجر؛ فقلبي يرفض أن يبدأ الرحلة بإهانة كهذه"

آريا: "لكنك ستجبر على تناول طعام بسيط، فلا تظن أن المائدة هنا كالقصور"

جلس الثلاثة في غرفة الجلوس المتواضعة، حيث أضاء نوافذ البيت ضوء القمر الخافت، تخللت خيوطه برودة المساء الهادئ، وانعكست ظلاله على جدران البيت القديمة، التي حملت في طياتها صمت الأيام وأسرار الماضي العميقة، رائحة الخشب القديم تعبق في الأرجاء، تحمل معها عبق الذكريات التي تتراقص بين الأنفاس، في جوٍّ من السكينة المتلألئة بأضواء النجوم، كان الهمس بين الحضور، والصمت بينهم يحمل حنيناً إلى ماضٍ لم يُنسَ بعد.

ابتسمت أمارا بخفوت، ثم مالت بجسدها قليلاً نحو آريا، عيناها تلمعان ببريق لا يخلو من الفضول، وسألت بصوت خافت يكاد ينافس صمت المكان:

"آريا، قولي لي، من هو آسر حقّاً؟ أعني ليس كما نراه فحسب؛ بل كما تعرفينه أنتِ، أشعر أنه يحمل أكثر مما يظهر، وكأن قلبه يخبئ شيئاً لا يبوح به"

رفعت آريا نظرها نحو أمارا، وحدّقت في وجهها لحظة، كأنها تقرأ ما وراء السؤال، لم يكن الفضول وحده ما سكن صوت أمارا؛ بل شيء آخر، شيء يشبه الإعجاب الذي لم يُنطَق بعد.

آريا وهي تقول بابتسامة:

"آسر؟ هو كالسفن التي تبدو ساكنة فوق سطح البحر، لكنك إن نظرتِ في أعماقها، وجدتِ العواصف، والتيارات التي لا تهدأ، نشأ

بعيداً عن الجميع، وسط أسئلة بلا أجوبة، وقصص غير مكتملة، لا أحد يعرف من أين جاء تماماً..."

أمارا:

"وهو لا يتحدث كثيراً، لكن في عينيه شيء، كأنهما تحملان خريطة لشيء ضائع أو مكسور"

أومأت آريا برفق، ثم نظرت إلى النافذة حيث تنعكس النجوم على الزجاج القديم، كأن السماء نفسها تنصت.

آريا:

"ربما لأنه لا يبحث عن الحقيقة فقط؛ بل عن نفسه أيضاً، هناك سرّ متعلق بأصله، بعض الأسرار تنمو في القلب كجروح لا يراها الآخرون، لكنها تؤلم أكثر كلما حاولت نسيانها"

أمارا:

"أحياناً أشعر أنني أرغب في أن أكون جزءاً من رحلته، لا لأعرف الحقيقة فحسب؛ بل لأفهمه، كما هو، لا كما يظهر"

ابتسمت آريا، وفهمت، لم تكن أمارا تسأل من باب الفضول فقط؛ بل من باب الاهتمام الصادق.

آريا:

"الحذر معه لا يعني أن قلبه مغلق، فقط يحتاج إلى من لا يقتحم؛ بل ينتظر بصبر عند العتبة"

سكنت الكلمات في الأرجاء، كما يسكن النسيم بين الأوراق، لا يُرى،

لكنه يُحس، جلسوا هناك، تحت ضوء القمر وعبق الماضي، وكلٌ منهم يحمل شيئاً لم يُقل بعد، أمارا، بقلبٍ بدأ يدقّ على إيقاع مختلف، وآريا، بعينٍ تراقب وتشهد، وآرام، الصامت الذي شعر أن الأرواح في هذه الغرفة بدأت تنكشف شيئاً فشيئاً، وكل ذلك في بيتٍ بسيط في أرجان، حيث تبدأ الحكايات من دون أن نعلم إلى أين تمضي، راح الليل ينسج عباءته، وانسابت نسمات المساء الباردة عبر النوافذ القديمة، تحمل معها هدوءاً نادراً لم يعهده الثلاثة منذ مدة، ومع مرور الوقت، خفتت الأحاديث، وذابت الكلمات في سكون الغرف.

مع إشراقة الشمس، وهدوءٍ ما زال يلفّ البيت كستار من حرير، جلست آريا على طرف الفراش، وعيناها ما زالتا تتبعان خطّ الضوء المتسلل من النافذة الخشبية، كان في قلبها حديث لم يكتمل، وقرار نضج أخيراً بين صمت الليل ووشوشة الرياح،

أيقظت آرام وأمارا بهدوء، ومع أول تنهيدة خرجت من شفاه أمارا، قالت آريا بنبرة يعلوها شيء من العمق:

"أريد أن أبدأ البحث، ليس عن عائلة آسر هذه المرة؛ بل عن نوح"

رفعت أمارا حاجبيها باستغراب، بينما آرام مال برأسه في صمت يترقّب.

أمارا: "نوح؟ تقصدين البحّار الذي ربّى آسر؟ ظننته مجرد رجل عابر في القصة"

آريا: "كان يبدو كذلك، لكن لا أحد يترك أثراً في شخص مثل آسر من دون أن يكون شيئاً أكثر من مجرد عابر، نوح هو أول من فتح

للطفل باب الحياة بعد أن وجده في قارب صغير تائهاً ملفوفاً بخرقة لا تحمل اسماً ولا سحراً، وقد بدأت الألسن تلوك سيرةً ظالمة، قالوا إنه ارتكب فاحشة، وإن الطفل ثمرة لخطيئة"

وأكملت آريا (بثقة):

"لكنّه لم يدافع عن نفسه، لم ينفِ، ولم يؤكّد، فقط ربّى آسر كأنه ابنه من قلبه، لا من دمه، علّمه البحر، علّمه الكرامة، علّمه أن الصمت أحياناً أبلغ من ألف تبرير"

أمارا: "وهل مات نوح؟"

آريا: "نعم سقط من مركبه في ليل عاصف، ولم يُعثر لجسده على أثر،

آسر لم يتحدث عن موته كثيراً، لكنه تغيّر بعد ذلك، كأن جزءاً من روحه انكسر، ولم يعد يُرمّم"

سادت لحظة من الصمت، بدت وكأنها احترام لروح الرجل الذي لم يعرفه الجميع، لكن أثّر في من عرفوه، ثم تابعت آريا:

"أريد أن أبحث عن ماضي نوح، عن قصّته، عمّن عرفوه حقّاً، لا لأجل الفضول؛ بل لأفهم كيف ربّى هذا الرجلُ آسر، وسط كل الاتهامات، والألم والبحر"

آرام: "هذا ليس طريقاً لمعرفة نوح فقط؛ بل لفهم جذور آسر، إن عرفنا من ربّاه، فهمنا لماذا اختار أن يكون كما هو"

أمارا:

"أنا معكما، فلنبدأ من الميناء الذي كان يرسو فيه نوح، من رفاقه القدامى، من الأمواج التي كانت شاهدة على صمته"

نهض الثلاثة، وعلى وجوههم تصميم لم يكن موجوداً قبل ساعات، إنهم لا يبحثون عن اسمٍ في سجلّ؛ بل عن حياةٍ غُرِسَت في رجلٍ مات مظلوماً، لكنه ترك خلفه إنساناً اسمه آسر.

وهكذا، بدأت رحلة جديدة، ليست لمطاردة سحرٍ أو كنز؛ بل لحكاية بحّارٍ عادي صار بوصلة لطفل مكسور، وربما، من دون أن يدري، صار بذرة البداية لكلّ ما سيأتي.

خرج الثلاثة من بيت آريا، والهواء البحري يملأ صدورهم برائحة الموانئ القديمة، كأن المدينة نفسها تستعدّ لتفتح لهم أبواب الحكاية، مشوا في أزقّة الحجر العتيق، والشمس تتسلّل من بين الأسطح، تعكس ظلّهم على الجدران، كأنّ أقدارهم تسير أمامهم بخطوة.

اتجهوا نحو ميناء السرجس، حيث كان نوح يرسي قاربه الصغير كل مساء، ويروي للصيادين والغرباء حكايات البحر والضياع والنجاة، هناك، بين الخشب المبلّل والصيّادين المسنّين، كان لا بدّ من أن يجدوا بقايا ذاكرة، أو كلمة من رجل ما زال صوته يطفو فوق الموج.

وصلوا إلى الميناء عند الغروب، حين تبدأ القوارب العودة، وتشتعل أضواء الفوانيس على الأرصفة.

اقتربوا من رجل مسنّ يرمّم شباكه بإتقانٍ غريب، كان صامتاً، لكنّ

في ملامحه حكمة من عاش أكثر مما قال.

آريا: "عذراً يا عم، هل كنت تعرف نوح، البحّار الذي كان يرسو هنا قبل سنوات؟"

رفع الرجل رأسه ببطء، ونظر إلى آريا نظرة طويلة، ثم قال بصوت أجشّ:

"نوح؟ آه، ذاك الذي حمل البحر في عينيه، والسكينة في خطاه؟ نعم، عرفته، ولا أحد هنا نسيه، مهما حاول النسيان أن يُطفئ الأثر"

اقترب آرام وأمارا، وجلسوا قربه، قالت أمارا بحذر:

"نسمع أنه ربّى ولداً، وأن الناس قالوا عنه الكثير"

ضحك الرجل ضحكة قصيرة، ثم ردّ:

"الناس؟ الناس تخاف من الطيب كما تخاف من الجنّ، قالوا إنه زنى، وإن الولد ابنه من خطيئة، لكنهم لم يروا كيف كان يحمله، كأن البحر نفسه أودعه بين يديه أمانة،

نوح لم يُنجب، لكنه أنجب فينا معنى الأب الحقيقي"

سأل آرام، وقد اقترب أكثر: "وهل تعرف من أين جاء الطفل؟"

هزّ الرجل رأسه:

"لا أحد يعلم، لكن نوح حمله، وربّاه كما لم يُربِّ أحد ابنه، وأقسم أن يعلّمه كيف يكون رجلاً لا يُهزم، لا بالدم، ولا بالحقيقة"

سكت قليلاً، ثم قال:

"لكن إن أردتم أن تعرفوا عن نوح ما لا يُقال على الأرصفة، فابحثوا عن امرأةٍ تُدعى قَمرَاء"

التفتت آريا فوراً، وقالت:

"قَمرَاء؟"

الرجل:

"كانت الأقرب إليه، يقال إنها الوحيدة التي كانت معه في فترات حياته، عاشت على أطراف المدينة، بين النهر والبحر، يعرفها من عاشر البحر، ويخشاها من خاف الحقيقة"

شدّوا رحالهم في الظهيرة نحو "مصَبّ القَصَب"، عند ملتقى النهر والبحر، حيث ترتفع الأشجار الكثيفة، ويغطي الضباب الأرض، كأنّه ستارٌ على ما لا يُرى.

ساروا بصمت، حتى بدا لهم كوخٌ خشبي مائل، محاط بالأعشاب، يقف وحده كحارسٍ على تخوم الأسطورة.

طرقت آريا الباب، لم يمر وقت طويل حتى فُتح، وظهرت امرأة متوسطة العمر، ذات شعر طويل فضّي، وعينين واسعتين بلون البحر قبيل العاصفة.

نظرت إليهم نظرة فاحصة، ثم قالت بصوت عميق:

"كنتم ستأتون، البحر أخبرني"

أجابت آريا بثقة هادئة:

"جئنا نسأل عن نوح، وعن آسر، قيل لنا إنك تعرفين ما لم يُحكَ"

نظرت قمراء إلى آريا نظرة طويلة، ثم قالت:

"تعالوا، أنتم لا تبحثون عن نوح فقط؛ بل عن النور الذي أودعه في قلب من لا يعرف من أين جاء"

دخلوا إلى الكوخ، ورائحة الأعشاب البحرية تعبق في المكان، جلسوا على وسائدَ من قماشٍ بحري خشن، بينما جلست قمراء على مقعدٍ خشبي أمامهم.

رفعت نظرها، وقالت:

"نوح لم يكن رجلاً عادياً، حين وجد آسر في القارب، لم يتردّد لحظة، لم يسأل: من؟ أو لماذا؟

بل قال فقط: "هذا ابني، شاء القدر أم أبى)"

أمارا همست بدهشة:

"هل عرف أصله؟ والده؟ من ألقاه؟"

هزّت قمراء رأسها ببطء:

"ربما عرف، لكنه لم يفضِ لي بشيء، لكنه كان يقول دائماً:

"لا يهمّ من وضعك في البحر، المهمّ من أخرجك منه)"

آرام انحنى إلى الأمام، وقال:

"هل عرفه آسر؟ هل كان يعلم كل هذا؟"

ابتسمت قمراء، وقالت:

"كان يعرف أن نوحاً ليس أباه الحقيقي، لكنّه لم يشك يوماً في أنه والده بالروح،

نوح ربّاه على الصدق، على الصبر، على أن لا يحمل الكراهية في قلبه مهما قال الناس، ولم يكن يبكيه سوى شيء واحد، أن يموت قبل أن يعرف آسر الحقيقة كاملة"

سألت آريا بهدوء:

"وأين الحقيقة الآن؟"

أجابت قمراء:

"بعضها في صدري، وبعضها في دفترٍ آخر، لم يعرف بوجوده أحد"

ساد الصمت، كأنّ قلوبهم جميعهم تسمع نبضات نوح تُقرع من خلف الغياب، تستدعيهم لفهم ما كان، لا بالحكم؛ بل بالفهم.

أشارت قمراء إلى صندوق صغير مغلق بإحكام، وقالت:

"افتحوه، لكن لا تنسوا،

نوح لم يكن يبحث عن ابنٍ يحمل اسمه؛ بل عن روحٍ تُكمل طريقه"

اقتربت آريا ببطء من الصندوق الخشبي الصغير، كان مغلقاً بقفلٍ قديم عليه آثار صدأ، كأنّه لم يُفتح منذ أعوام، نظرت إلى قَمرَاء، التي ناولتها مفتاحاً صغيراً من سوارٍ عتيق في معصمها، وقالت قمراء:

"افتحيه أنتِ، فقد خُبّئ هذا من أجل من يطلب الحقيقة، لا من يطارد الحكايات"

وضعت آريا المفتاح داخل القفل، ودار ببطءٍ حتى سمعوا صوت الطقطقة الخافتة، كأن الصندوق تنفّس أخيراً بعد صمتٍ طويل، فتحتِ الغطاء، فانبثقت منه رائحة الورق القديم، ممزوجة بملح البحر، وأثرٍ خفيف من زهر الليمون المجفف.

في داخله، وُجدت مجموعة من الصفحات المُجلّدة بخيطٍ يدوي، وعليها من الخارج نقش صغير بلغة قديمة، قرأته قَمرَاء بصوت هامس:

"هذا ما لم أُفصح به... لمن بعدي"

تناولت آريا الصفحات الأولى، وبدأت القراءة بصوتٍ مسموع، وآرام وأمارا ينصتان وكأنهما في طقسٍ من طقوس الكشف:

"اليوم الأول، بعد ما أنقذته من الموج:

.كان صغيراً جدّاً، عيناه لا تحملان خوفاً، فقط دهشة، لم يبكِ، نظر إليّ، كأنّه يعرفني.

لم أسأل من وضعه في القارب، لم أبحث عن أمه أو والده، شعرت فقط أنّني وجدتُ شيئاً ضاع مني منذ زمن.

اليوم العاشر:

"أسميته آسر،

لم أكن أملك الحق في تسميته، ولا في حمله، لكن البحر وهبني إيّاه، وأنا لا أردّ هدايا البحر"

السنة الثانية:

"الناس بدأوا يتهامسون،

قالوا إنه ابني من خطيئة، وإنني أُخفي العار،

لم أردّ على أحد، لكنني كنت أحمله كل ليلة، وأحدّثه عن الشجاعة، عن الشرف، عن أن يكون الإنسان إنساناً، لا ظلّاً لماضي أحد"

رفعت آريا نظرها عن الدفتر، فوجدت أمارا تمسح دمعة سقطت من دون أن تنتبه، وآرام يشدّ قبضته في صمت.

همست آريا:

"يا إلهي، كم حمل هذا الرجل من وجع، من دون أن يشكو"

قالت قَمرَاء بنبرة رخيمة:

"نوح لم يكن طاهراً في الماضي، لكنّه طهّر نفسه بتربية آسر، وأقسم إنه إن لم يستطع أن يغسل اسمه، فسيُرسل إلى العالم اسماً نقياً لا يُدان"

قال آرام بصوت منخفض:

"وهذا ما فعله، آسر لا يعرف شيئاً من هذا، لكنّه سار في الطريق كما لو كان يسمع صدى تلك الصفحات"

سألت أمارا، وقد بدا في عينيها فضول صادق:

"هل عرف نوح يوماً الحقيقة؟ من أين أتى آسر حقّاً؟ ومن وضعه في القارب؟"

أجابت قَمرَاء بصوت خافت، كأنها تُنزِل حملاً قديماً من قلبها:

"ربّما عرف، لكنّه رفض أن يجعل الطفل يدفع ثمن الحقيقة،

لقد قال لي في أحد الأيام:

"قد يأتي يومٌ يُسأل فيه آسر عن دمه، فإن لم يعرف، فليقل: دمي من ماء البحر، وأبي رجلٌ اسمه نوح)"

ساد صمتٌ طويل، لم يُكسره سوى حفيف أوراق الشجر خلف النافذة، وكأن الأرض نفسها توقفت لحظةً لتصغي إلى ما كُتب في أحد الأزمان.

رفعت آريا رأسها، وقالت بهدوء:

"علينا أن نأخذ هذه الصفحات معنا، لا لنُخبر بها آسر؛ بل لنفهمه أكثر، ونحملها معه حين يحين الوقت ليعرف من يكون"

قَمرَاء نظرت إلى الثلاثة، ثم قالت بابتسامة غامضة:

"خذوها، لكن تذكّروا، ليس كلّ مَن يعرف الحقيقة يجب أن ينطق بها، أحياناً، يكفي أن نحبّ من نحبّ، كما هم، لا كما جاؤوا"

غادر الثلاثة كوخ قَمرَاء، وصفحات الدفتر بين يدي آريا، وكأنّهم حملوا معهم شظايا من روح رجلٍ مات، لكنه ترك خلفه شيئاً أعظم من نفسه.

ترك إنساناً اسمه آسر.

بعد أن ودّعوا قمراء، وأخذوا معهم دفاتر نوح القديمة، انطلقوا عائدين عبر الممرات الضيقة بين الأشجار الكثيفة، وأصوات النهر تتردد بينهم كهمساتٍ غامضة، لكن شيئاً ما بدأ يزرع الريبة في

قلوبهم.

أمارا، التي كانت تحمل الصفحات، نظرت إليها مرة أخرى، وقالت بحذر:

"تقول قمراء إن نوحاً لم يرد أن يعرف آسر أصله، لكن كيف لامرأة أن تخفي أموراً مهمة كهذه؟ هل من المنطقي أن تكون كل الحقيقة هنا؟ أو أن تكون قمراء وحدها التي تعرف كل شيء؟"

أشار آرام إلى الأشجار المحيطة، وقال:

"وأنا أيضاً، هناك شيء في قصتها لم يبدُ صادقاً بالكامل، كانت مترددة في بعض الإجابات، وكأنها تخشى أن تبوح بأكثر مما قالت"

نظرت آريا إلى الدفتر بتمعن، ثم قالت:

"الصفحات تكشف عن جانب واحد فقط من القصة، جانب نوح، لكن ماذا عن أصول آسر؟ هل أُخفِي عمداً جزءاً من الحقيقة؟ أم أن هناك من يرفض أن تُقال؟"

توقفوا عند جسر صغير يعلو مجرى ماءٍ صافٍ، ووجدوا نقشاً على حجر قديم مكتوباً برموز غامضة لم يتمكنوا من فهمها فوراً، لكن آرام لمسها، وأشار إلى شيء غريب:

"هذه الرموز ليست من زمن نوح، ولا تشبه ما تعلمناه في عالمي، عالم الشياطين والجان، كأنها رسالة تحذير، أو سرّ مظلم يُراد له أن يظل مدفوناً"

همست أمارا بقلق:

"ربما قمراء جزء من لعبة كبرى، لعبة تحكمها خفايا لم نلم بها بعد"

ابتسمت آريا بحدة، وقالت:

"إذا كان الأمر كذلك، فعلينا أن نكون أكثر حذراً، ليس كل من يحمل المفتاح هو صديقنا، ولا كل من يحكي الحقيقة يخبرنا إياها كاملة"

واصلوا طريقهم نحو أرجان، وقلوبهم مثقلة بظلّ الشك، كان يبدو أن كل إجابة تؤدي إلى سؤال أكبر، وكل نور يرافقه ظل غامض.

الرحلة لم تكن مجرد بحث عن الماضي؛ بل كانت اختباراً لقوة صداقتهم، وثبات إيمانهم بالحقيقة التي يريدون كشفها، مهما كانت مظلمة أو مخفية.

الذين ساروا مع الأثر

قاد قاسم آسر في الصحراء، وعلى الرغم من تلألؤ الرمال تحت ضوء القمر، كان آسر يشعر بثقل غريب في صدره، كأن ماضيه كله يلاحقه.

وصلا إلى ساحل مخفي حيث كانت تنتظرهم سفينة قديمة مهترئة، فقال قاسم:

"هذه السفينة تحمل أسراراً أقدم من عمرها، وهي الوحيدة التي يمكنها أن توصّلنا إلى الجزيرة من دون أن نُكشف"

ركبوا السفينة، وكانت الأمواج تتلاعب بها وكأنها ترحب بهما أو تحذرهما، ونجوم السماء تُضيء في استحياء خلف غيومٍ تتحرك ببطء.

فجأة، انطفأت الأضواء الطبيعية كلها، لا قمر، لا نجم، فقط ظلام صافٍ غطّى كل شيء، والسفينة بدت كأنها تبحر في فراغ.

جلس آسر قرب الحافة، والخنجر بين يديه، مرّر إصبعه على رمزه المنقوش، فتوهّج النصل فجأة بلونٍ أزرق، لا يشبه ضوءاً بشرياً؛ بل كأنّه وميض ذاكرة.

شعر آسر بنسيم بارد يعبر صدره، كأن شيئاً من دمه بدأ يستيقظ، همس قاسم من خلفه:

"الخنجر ليس مجرد إرث، إنه مفتاح، مفتاحٌ لشيء لم يُفتح منذ زمن رومان..."

لكن قبل أن يكمل، توقفت السفينة دفعة واحدة، من دون ريح ولا موج، بدا البحر ساكناً كما لم يكن من قبل، وكأنهما علقا في لحظة لا تنتمي إلى الزمن.

وفجأة، من قلب الضباب، تجسّد ظل لا شكل له واضح، مجرد هالة مظلمة، أطرافها تتلاشى في الهواء، وعينان كشرارين أزرقين يطفوان في العدم.

"أخيراً جاء وارث الدم"

قالها الظلّ، وصوته لم يكن صوتاً حقيقياً؛ بل كان فكرةً ثُلقى مباشرة في ذهن آسر.

وقف آسر وهو يشد قبضته على الخنجر، وقاسم يراقب بصمت، قال آسر بثبات:

"إن كنت حارساً، فافتح لنا الطريق، نحن لا نطلب الإذن، نحن نطالب بالحق"

ضحك الظلّ، أو بالأحرى، ارتجف الهواء من حوله كأنه يسخر:

"الحقّ؟ الحق ليس لك وحدك، هذا الطريق لا يُمنح؛ بل يُنتزع"

امتدّ من الظل شريط دخاني اقترب من آسر، لكنه لم يؤذه؛ بل اخترق عقله بلحظة، ومضت أمام عينيه مشاهد مبهمة: صرخة امرأة، خنجر يقطر دماً، وجه رومان نصفه نور ونصفه ظلام.

ترنّح آسر وتراجع خطوة، سأل وهو يلهث:

"ما هذا؟ من أنت؟"

ردّ الظل:

"أنا البوابة، ولستُ وحدي من سيختبرك"

ثم اختفى كما جاء، وتحرّكت السفينة من جديد، بهدوء أشدّ مما سبق، لكنها الآن تتجه بوضوح نحو جزيرة بدأت تتشكّل أمامهما عبر الضباب، جدران سوداء، أشجار عملاقة، وصمت ثقيل لا يشبه صمت البحر.

قال قاسم بصوت خافت:

"من هنا، لا عودة من دون مواجهة الحقيقة، فإن كنت مستعداً لها، فاستعد أن تخسر ما تظنه عن نفسك"

لم يجب آسر، فقط شدّ الخنجر إلى جنبه، وتقدّم.

اقتربت السفينة من الجزيرة، ومع كل مترٍ تسيره في الماء، كانت ملامح الأرض تزداد غرابة، الأشجار شاهقة، سوداء الجذوع، أوراقها تميل إلى الفضيّ، وكأنها امتصّت ضوء القمر حتى ارتوت، الهواء ثقيل، ساكن، كأن الزمن متوقف عند ضفافها.

رسَت السفينة أخيراً من دون صوت، لا طيور، لا حيوانات، ولا حتّى صوت الموج. فقط صمتٌ... يحمل في طياته همساً خفياً لا يُسمع؛ بل يُشعر.

نزل آسر أولاً، ثم تبعه قاسم، وكان كلاهما يحدّق في الأرض المبللة تحت قدميه، خُطى آسر كانت ثابتة، لكن قلبه يخفق وكأن شيئاً ما في هذه الأرض يعرفه، أو يتذكّره.

سار الاثنان بين الأشجار، وكان الخنجر ما زال يتوهّج من حين إلى آخر، كأنّه يستجيب لنبض الجزيرة، وبعد مسافة ليست بالقصيرة، وصلا إلى صخرة ضخمة منقوشة عليها رموز قديمة بلغة الجان، لمسها آسر، فاهتزت الأرض تحتهما فجأة،

ظهر من بين الشجر ممر حجري لا يُرى إلا لمن يقترب، دخلاه من دون تردد، في نهايته، وُجدت بوابة حجرية ضخمة، تتدلّى منها سلاسل صدئة، وعين محفورة في منتصفها.

همس قاسم:

"إنها عين الذكرى، لا تُفتح إلا حين يرى الداخل شيئاً لا يستطيع نسيانه"

اقترب آسر ببطء، وما إن وقف أمام العين حتى أضاءت بلون أزرق باهت، وبدأت الأرض من حوله تدور، تجمّد الزمن، وفجأة، غمرته رؤية

رجلٌ يشبهه حدّ التوتر، يقف على هذه الجزيرة، صوته عميق، مكسور:

"اسمه آسر، لا تخبروه عني حتى يبلغ الدم، حتى يصبح أقوى من الكراهية، وأضعف من الحقيقة"

ثم، وجه امرأة، ليست واضحة، لكن في عينيها خوف وندم،

شهق آسر، وسقط على ركبتيه، قال قاسم وهو يقترب:

"رأيت شيئاً، أليس كذلك؟"

ردّ آسر بصوت منخفض:

"كان أبي، وكان يعرف أنني سأصل، لكنه لم يُرِد لي أن أعرفه، حتى أكون مستعداً"

اهتزّت البوابة فجأة، ثم انشقّت ببطء، كأنها تتنفس، خلفها، ممرّ ضيّق مظلم يفضي إلى أعماق الجزيرة.

قال قاسم:

"من هنا تبدأ المواجهة، لا مع الجزيرة فقط؛ بل مع ما أخفاه رومان، ومع ما أنت عليه فعلاً"

ردّ آسر وهو يمسك بالخنجر بإحكام:

"أنا مستعد"

ودخلا معاً إلى ما كان ينتظره منذ طفولته.

كان الممرّ الضيق يمتدّ أمامهما كحلق مظلم في جوف الأرض، جدرانه رطبة، وملمسه أشبه بجلد حيّ يتنفس، كان الصمت هناك أكثر ثقلاً، والهواء يحمل رائحة قديمة، مزيج من الطحالب والنسيان.

سار آسر وخطاه تتردّد كهمسات في الفراغ، وقاسم خلفه، عينه لا تغفل عن حواف الممرّ، كأنه يتوقّع أن ينبثق منه شيء في أي لحظة.

وفجأة، توقّف آسر.

همس:

"هل سمعت ذلك"

قاسم شدّ نظره إلى الجدار الأيسر، ثم قال:

"نَفَس! كأنه تنفّس"

مدّ آسر يده نحو الحجر، ولمّا لمسه، انشقّ الجدار أمامه ببطء، من دون صوت، كأنه يستجيب لشيء يسري في دمه، وراءه ظهرت غرفة صغيرة دائرية، محفورة في الصخر، لا يدخلها نور، لكن في مركزها ضوء خافت ينبض من صندوق حجري مغلق.

اقتربا منه، وكان على سطحه نقش قديم بلغة الجان، ترجمها قاسم بصوت منخفض:

"إلى من وُلد من دمه، وإلى من يَجهل نصفه الآخر، هنا البداية"

فتح آسر الصندوق ببطء، وكانت أنفاسه تتسارع من دون أن يعلم السبب، كأن قلبه يتوقّع ما فيه.

في الداخل، وُجد وشاح حريري قديم، يحمل رائحة لا تشبه شيئاً في العالم، وبين طيّاته، وُجدت رسالة مكتوبة بخطٍ أنيق، بلغة الجان.

قرأها قاسم، لكنه توقف عند أول جملة، وظهرت الصدمة في عينيه.

قال ببطء:

"هذه... رسالة من والدتك"

ارتجف آسر:

"ماذا؟ مستحيل، قالوا إنها اختفت قبل سنوات، ولا أحد يعرف

عنها شيئاً"

هزّ قاسم رأسه:

"آسر، هذه الرسالة مختومة بعلامة قديمة لا يحملها إلا المقرّبون من العائلة الملكية في مملكة الجان، والدتك لم تكن بشرية"

اقترب آسر وأخذ الرسالة، نظر إلى الكلمات، وكانت لغته الأم تترجمها له من دون جهد، كأنّها نُقشت في روحه منذ ولادته:

"يا من ولدت من النار والظلال،

إن كنت تقرأ هذه الكلمات، فأنت نجوت من ما خفتُ أن يأكلك،

لا تبحث عني كما تبحث عن والدك، فلكلٍّ منا ظله،

لكن إن وجدت هذا المكان، فاعلم أن الحقيقة لا تكمن في من تظنه مجرماً؛ بل في من جعله كذلك"

سقطت الورقة من يد آسر، ورفع عينيه إلى قاسم:

"أمي، كانت تعرف كل شيء"

أضاف قاسم وهو يتأمل الوشاح:

"ويبدو أنها لم تختفِ؛ بل اختبأت"

لحظة صمت تردّد فيها نبض الجزيرة، ثم بدأت الجدران تهتزّ قليلاً، وكأنها لا تريد لهذه المعرفة أن تستمر من دون ثمن.

قال قاسم سريعاً:

"علينا الخروج من هذا المكان... الآن"

أخذ آسر الوشاح والرسالة، وركضا معاً نحو الممر، كانت الجزيرة تستيقظ، ليس بغضب؛ بل بقلق.

فالسرّ الذي كُشف... ليس نهاية شيء.

بل بدايته

ركض آسر وقاسم في الممرّ الضيّق، والرسالة مطوية في جيب آسر، والوشاح يشتعل بحرارة خفيفة، كأنّه ينبض مع نبض الجزيرة.

لكن ما إن بلغا الفتحة التي انشقّت سابقاً، حتى وجداها قد أُغلقت تماماً، كأنّ المكان غيّر رأيه، ورفض خروجهما.

ثم ساد سكون مريب.

لحظات، قبل أن يُسمع صوت خطوات، لا تمشي؛ بل تُجرّ، كأن شيئاً يسحب جسده عبر الصخر.

من الظلال، تجسّدت هيئة بشريّة، لكنها مشوّهة، رجل طويل نحيل نحولاً غير طبيعي، بشرته رمادية كأنها طين يابس، ووجهه مغطى بقناع رخامي بلا ملامح، سوى فم صغير مقلوب للأسفل.

وقف أمامهما بصمت، ثم انحنى رأسه قليلاً، وقال بصوتٍ كأنه صرير حديد قديم:

"ما لا يجب أن يُفتح، قد فُتح"

تقدّم آسر خطوتين، والخنجر يشعّ على خاصرته، لكن الظلّ لم يتحرّك؛ بل قال:

"أنت ابن الاثنين، الدم الذي لا يريده أحد أن ينجو"

صرخ آسر:

"من أنت؟ ولماذا تمنعنا؟"

ردّ الكائن بصوت أكثر برودة:

"أنا الوصيّ على الصمت، أُرسلت حين كُسرت القَسَمات، حين فُتح باب الذاكرة، ومهمتي أن أنهي السلالة"

سحب آسر الخنجر، استعدّ للقتال، لكن قاسم وضع يده على كتفه، وقال:

"لا يمكنك قتله الآن، ليس في هذه الأرض، هذه الكائنات لا تُقاتل كما تُقاتَل المخلوقات؛ بل تُحاصر بالمعرفة"

نظر إليه آسر، والظلّ اقترب أكثر، ثم مدّ إصبعه الطويل، وأشار نحو صدره:

"أمّك خانتنا، والدك تخلّى عن عهد الدم، وأنت، يا خليط النار والظلال، ستكون النهاية أو البداية"

ثم اختفى في ومضة، كأنّ شيئاً سُحب من قلب الأرض.

وفي لحظتها، فُتح الممرّ من جديد، لكن البرد الذي خلّفه الكائن لم يخرج من عظام آسر.

قال قاسم وهو يعيد تنسيق عباءته:

"هناك من لا يريدك أن تكتشف الحقيقة، وهناك من ينتظر أن تفعل،

فقط ليتحقق من أن النهاية ستحدث"

سار آسر ببطء، عيناه لا تزالان معلّقتان ببقعة الظلّ التي اختفى فيها الكائن، وقال بصوت منخفض:

"لو كانت أمّي جزءاً من هذا، إذاً لا طريق للهروب، ولا مجال للتراجع"

ومن خلفهما، تردّد صدى الكلمة التي قالها الكائن، لا بصوته؛ بل بصوت الجزيرة نفسها:

"البداية أو النهاية"

غادرا الممرّ الحجريّ بصمتٍ ثقيل، وخلفهما بقي الهواء راكداً، كأنّ المكان حبس أنفاسه بعد ظهور ذلك الكائن، الشمس لم تكن مرئيّة، لكن النور الرماديّ فوق الجزيرة بدا باهتاً أكثر، والضوء نفسه صار غريباً، لا يسقط كما يسقط الضوء؛ بل يرتجف، كما لو كان خائفاً.

سار آسر وقاسم بين الأشجار العتيقة، وأصوات خفيفة بدأت تُسمع حولهما، خشخشة لا تأتي من الريح؛ بل من تحت الأرض، وكأن الجزيرة نفسها تمشي خلفهما.

توقّف آسر فجأة، وقال:

"انظر"

أشار إلى جذع شجرة قربه، كانت هناك علامة محترقة عليه، الرمز نفسه الموجود على قناع الكائن الذي ظهر لهما، دائرة يتوسطها فم مغلق، لكن الأدهى أن العلامة كانت حديثة الحرق، والدخان يتصاعد

منها كأنها وُضعت للتوّ.

قاسم اقترب ولمسها بإصبعه، فاحترق جلده فوراً، وسحب يده وهو يسبّ:

"حرارة هذه النار ليست من هذا العالم"

نظر آسر حوله، وإذ بأشجار أخرى تحمل الرمز نفسه، عشرات الرموز؛ بل مئات، تتناثر على الجذوع كأنّها علامات صيد.

قال قاسم بصوت خافت:

"إنهم يطوّقوننا"

وفجأة، تغيّر الهواء.

لم تعد هناك أصوات طيور، ولا حتى حشرات، ارتفعت رائحة غريبة، كأنّها دم فاسد ممزوج بالعفن، وانتشر من حولهما ضباب أسود منخفض، يمشي على الأرض مثل زحف الكوابيس.

ثم بدأ الضباب يتشكّل.

أول ما ظهر كان عينان، ثم وجه، ثم خمسة، ثم عشرة.

كائنات بلا وجوه، أجسادها ضبابية، لكنها تمشي، تتنفس، وتراقب.

قال آسر وهو يرفع الخنجر:

"أترى هذا؟ هذه ليست جزيرة أسرار، هذه جزيرة لعنة"

ردّ قاسم وعيناه متوتّرتان:

"الجزيرة ليست ملعونة؛ بل كل من دخلها وهو يبحث عن ما يجب

أن لا يُعرف، يصبح علامة، وأنت، يا آسر، صرت علامة"

سقطت ورقة من الأشجار أمامهما، وكانت تحمل اسم "لينا"، (اسم والدته)، مكتوباً بلونٍ داكن لا يشبه الحبر؛ بل يشبه الجُرح.

رفعها آسر وهو يحدّق فيها، وظهر على ظهرها جملة قصيرة:

"إن وجدت اسمي، فلن تجدني يا آسر"

شهق آسر وارتعد قلبه، لكنّ قاسم اقترب، وقال بسرعة:

"هذه رسالة تحذير، لا دليل، إنهم يريدونك أن تشك فيها، أن تظنّ أنها خائنة، أن تخاف من صورتها في ذاكرتك"

لكن أعين الكائنات ما زالت تحدّق.

وهم لم يهاجموا... بعد.

قال آسر:

"فلنخرج من هذا المكان، قبل أن تقرّر الجزيرة اختبار نيّاتنا فعليّاً"

انطلقا يجريان في الغابة، والضباب خلفهما يمشي، لا بسرعة؛ بل بيقين.

فالمطاردة بدأت.

لكن السؤال لم يكن: هل سيلحقون بهما؟

بل: لماذا لا يهاجمون... بعد؟

الضباب الأسود كان يزحف خلفهما ببطء، لكنه لا يتراجع، كأنه يعرف أنه سيصل إليهما مهما ركضا، كان آسر يلهث، ووجهه مغطّى

بالعرق والرماد، والخنجر في حزامه ينبض بحرارة حادّة، لم يعد سلاحاً؛ بل صار يحترق وكأنه يُحذّر.

أشار قاسم إلى فجوة بين الأشجار، وقال بصوت لاهث:

"هناك، أرى أطلالاً قديمة، قد نجد مأوى مؤقتاً"

اندفعا نحو الاتجاه، وتغلغلا بين جذوع ضخمة متشابكة كأضلع وحش مات واقفاً، ومع كل خطوة، كانت الأرض تزداد ليونة، وتغوص أقدامهما في تربة رطبة، كأنها تمتصّ الحرارة من أسفلهما.

ثم ظهرت أمامهما بوابة حجرية نصف منهارة، مغطّاة بنقوش مكسورة، بعضها يُشبه لغات الجان، وبعضها لا يُشبه شيئاً يعرفه البشر أو الجان.

وراء البوابة، كانت هناك بقايا معبد غائر في الأرض، مكسوٌ بجذور كثيفة تحجّرت مع الزمن، كأن الجزيرة أرادت أن تبتلع هذا المكان وتخفيه.

قال قاسم وهو يحدّق في أحد الأعمدة:

"هذا المكان ليس من صنع البشر، ولا الجان الذين نعرفهم"

دخل آسر أولاً، وكان كل شيء في الداخل ساكناً أكثر من اللازم.

الهواء بارد، لكن ليس برودة طبيعية.

إنه بارد كأنما شيء ما هنا... لا يملك جسداً، لكنه يراقب.

وفي زوايا المعبد، كانت هناك تماثيل مكسورة لوجوه بلا أعين، أفواههم ممدودة في صرخات حجريّة، وبعضها كانت يداه

مرفوعتين نحو السماء كمن يستغيث، لكن لا أحد أنقذه.

أضاء قاسم شعلة صغيرة، فارتعشت الظلال على الجدران، وإذ بهما يرَيان ما يشبه نُقوشاً حيّة تتحرك ببطء، لا بفعل الضوء؛ بل بفعل شيء خفيّ، كانت تُغيّر ملامحها كلما نظر إليها آسر، وكأنها تقرأ أفكاره، وتُعيد تشكيل القصص،

وفي زاوية ضيقة، كان هناك باب خشبيّ مائل، نصفه مدفون في الأرض، وعليه علامات خربشة بالأظافر، لا بالأدوات.

آسر اقترب منه، فوصلت إلى أنفه رائحة لا تُطاق، كأن دماً قديماً اختلط برطوبة ألف عام.

قال قاسم:

"لا تفتحه"

لكن آسر قال وهو يحدّق فيه:

"هناك شيء خلفه يناديني"

فتح الباب ببطء، وصوت الخشب صرخ كأنّه يعارض القرار.

في الداخل، نزل سلّم حجريّ نحو الأسفل، حيث لا نور، ولا حركة، سوى صوت تنفّس خفيف جداً يأتي من العُمق.

هبط الاثنان بهدوء، وكانت الجدران تضيء فجأة كلما مرّا لا بنار؛ بل بـضوء أزرق كأنّه عين تراقبهما.

ثم في نهاية السلم، وجدا غرفة دائرية، وفيها كانت هناك مرآة سوداء ضخمة، غير مصقولة، سطحها ساكن، لكنه يعكس شيئاً لا

يظهر في الواقع.

حين نظر آسر إليها، رأى وجهه، ووجه قاسم، ثم وجه امرأة.

ليست والدته كما يذكرها؛ بل نسخة أكبر، متعبة، وعيناها محروقتان.

لكنها همست من داخل الزجاج بصوت خافت:

"آسر، لقد تأخرت"

تراجع آسر، وصرخ:

"من أنت؟"

لكن قاسم شدّه من ذراعه فجأة:

"لا تنظر أكثر، هذه المرايا تسحب الوعي، تبتلع الهويّة"

وعندما همّ بالخروج، لاحظ آسر شيئاً مكتوباً أسفلها، بلغة الجان:

"من رأى الحقيقة، لن ينجو منها"

وفجأة، اهتزت الجدران، وأُغلقت بوابة السرداب، وظهر على السقف علامة الكائن الذي التقياه، لكنها كانت هنا محفورة منذ قرون.

قال قاسم بصوت مرتجف:

"هذا المكان ليس مأوى؛ بل فخّاً، وقد دخلناه"

وقبل أن ينطفيء الضوء، سمِع الصوت مرة أخرى، يأتي من داخل الجدران:

"العلامة تتحقق، ابن الظلال والنار دخل القبو الأخير"

بعد أن دخلا إلى المأوى الغامض، وسكنت الضوضاء خلفهما، ساد صمت ثقيل، بدا كأن المكان لم يُمسّ منذ مئات السنين، ومع ذلك، كان هناك شيءٌ حيّ، خفيّ، يراقب.

الجدران هنا كانت مختلفة.

ليست حجارةً عادية؛ بل حجارةً محروقة من الداخل، كأن ناراً خالدة مرّت فيها، وجثث قديمة متحجّرة كانت تزين الزوايا، لا يبدو أنها ماتت بفعل سيف أو مرض؛ بل كأنها ذابت من الداخل، بينما كانت أفواهها مفتوحة على صراخٍ أبديٍّ لا يُسمع.

قال قاسم بصوت خافت:

"هذا المكان... لم يُبنَ ليكون ملجأ؛ بل قبراً لمن عرف أكثر مما يجب"

لكن آسر كان مأخوذاً بشيء آخر.

رأى على الحائط الأمامي رسماً غريباً، لوحة جدارية كبيرة، مطموسة بالرماد، لكنه استطاع أن يميّز فيها شيئاً مرعباً: امرأة ذات شعرٍ طويل، واقفة على ساحلٍ، تمسك بطفلٍ بين ذراعيها، وخلفها ظلٌّ يشبه وحشاً بأعين كثيرة.

أسفل الجدارية، كان هناك اسمان محفوران:

"لينا، وآخر من نجا"

شحب وجه آسر، وقلبه بدأ يخفق كأن الخنجر الذي يحمله أصبح

حياً داخله، اقترب ولمس الرسم بأطراف أصابعه، وفجأة...رأى.

عيناه اتسعتا، وغرق في رؤية عنيفة، كأن الزمان انقلب داخله.

أمواج، بحرٌ هائج، وامرأة تصرخ، وهي تضعه في قارب صغير، كان رضيعاً.

وظل يشبه امرأة تصرخ من بعيد: "اهربي! سيأخذونك!"

لكن المرأة -لينا- كانت تبكي، تقبّله على جبينه، وتهمس.

ثم دفعت القارب بعيداً، ونزل خلفها كيانٌ بلا ملامح، فقط عينان واسعتان حمراوان، وسحبها إلى أعماق البحر.

عاد آسر إلى وعيه وهو يصرخ، وقاسم أمسكه بقوة.

قال آسر بصوت مبحوح:

"لقد رأيت... أمي! كانت تحميني، لم تهرب، لم تخن، كانت تهرب من شيء، شيء... حي"

نظر قاسم حوله، وقال بجديّة خافتة:

"رأيتَه إذاً، الكيان، الكائن نفسه الذي نراه في الظلال، هذا ما طاردنا، وما أكل ذاكرة بعض الشياطين، وما جعل الجزيرة تتنفس الرعب"

في إحدى زوايا المأوى، وجد آسر صندوقاً حجريّاً صغيراً، عليه ختم قديم، حرف لينا بلغتهم القديمة.

كسره، ووجد فيه شيئاً مغطّى بالقماش.

كشفه ببطء.

كان هناك سوار نحاسي صغير محفور عليه بخط دقيق: "إلى ولدي، مهما ابتعدت"

كان سوار والدته.

قبضه بقوة، وهمس:

"لم تمت، ما زالت رسائلها تصرخ في هذه الأرض، وسأجدها، أو ما تبقّى منها"

لكن من خلفهما، خرجت همسة غريبة، تشبه صوت امرأة... خافتة... معذبة.

استدارا بسرعة، لكن لم يكن هناك أحد.

مجرد ظلٌ لامرأة على الجدار، يختفي ببطء، ويبتلع معه النور.

حدّق آسر في السوار طويلاً، كأن روحه تنقبض شيئاً فشيئاً،

ثم فجأة، تنفّس بقوة، وتقدّم خطوة، ثم اثنتين، ثم انهار جاثياً على ركبتيه.

أغلق عينيه بشدة، وكأن العالم حوله يصيح، وهو لا يملك سوى أن يصرخ.

ثم...

صرخ.

صرخة ممزقة، ليست مجرد صوت؛ بل تمزّق روح.

كذبوا، كذبوا عليّ كلهم...

ضرب الأرض بقبضته حتى سال الدم من راحته.

كل حياتي كانت كذبة!

ثم نظر نحو الأعلى، كأنه يُخاطب السقف، السماء، أو من غادروا ولم يتركوا له سوى الرماد:

"أين أنتِ يا أمي؟ أحقاً تركتِني؟ أحقاً... رميتني في البحر كأنني خطيئة؟"

بكى،

بكى كما يبكي اليتيم حين يتذكّر أنه لم يُختر يوماً؛ بل تُرك.

اقترب قاسم ببطء، لم يتكلم أولاً؛ بل جلس إلى جواره في صمت، كأن للصمت صوتاً أوفى من أي تعزية.

رفع آسر نظره إليه، والدموع تنساب بلا خجل:

"أنا لست ابن رومان فقط...

أنا ابن الغياب... ابن الظلال...

ابن الظنون والهمسات...

سمعت قصصاً لا وجه لها... والآن، حين ظننت أنني وجدت الحقيقة،

قابلتني الحقيقة بوجهٍ أعظم من قدرتي على التصديق"

قاسم مدّ يده، ووضعها على كتفه برفق، وقال:

"لك أن تنهار، آسر، لك أن تبكي، أن تصرخ، أن تكرهنا...

لكن لا تنسَ أن هؤلاء الذين كذبوا، ما زالوا يحتفظون بشيء من الحقيقة،

وإن بقي في قلبك جزء واحد ينبض، فليكن للبحث، لا للانتقام"

آسر أبعد يده، ونظر إليه بعينين تكسوهما دموعٌ محترقة:

"أريد أن أراها، قاسم، حتى إن كانت ميتة، أريد أن أراها،

أن أعرف هل بحثت عني؟ هل أحبتني؟"

سكت برهة، ثم أكمل بصوتٍ مخنوق:

"لأني... لا أستطيع أن أعيش بين الحُبّ والشك أكثر، إما أن أحبها، وإما أدفنها تماماً"

قاسم حدّق فيه طويلاً، ثم قال:

"إذاً دعنا نُكمل الطريق،

ليس بحثاً عن الجواب فحسب؛ بل عن السلام"

في الخارج، كانت الريح قد بدأت تهبّ، تحمل معها رائحة البحر والملح، كأن الأمواج تنتظر عودتهما لتروي لهما ما أخفته منذ سنين.

لكن في قلب آسر،

لم يعد هناك صبيٌ ضائع.

بل رجلٌ تحطّم...

ثم بدأ ينهض، قطعةً قطعة، من رماد قلبه.

لم ينظر خلفه.

فالماضي الذي لم يمدّ له يداً حين اختنق، لا يستحق التوديع.

وقف قاسم إلى جانبه، والغبار يعلو كتفيه، وصمت الليل يملأ ما تبقّى من الكلام.

قال آسر وهو يربط الخنجر حول خصره من جديد:

"ربّما لن أرى والدي ثانية، لكنني ما زلت أتنفّس، وما دمتُ كذلك، فلن أسمح لأحدٍ أن يكتُب لي النهاية"

قاسم أومأ برأسه، وفي عينيه شيء من الحزن، وشيء من الفخر.

كانا يستعدان للرحيل حين لاح برقٌ بعيدٌ في السماء، تلته رجفةٌ غريبة في الأرض، كأن شيئاً ما ينهض من سباته.

وفجأة، انبعثت من بعيد أصوات همسٍ لا يُفهم، تحمل بين طيّاتها اسماً ترنّد كصدى مع الريح:

"قَــمَــراء...."

تجمّد آسر في مكانه.

التفت نحو الصوت، كأنّه يعرفه منذ زمن، على الرغم من أنه لم يسمعه من قبل بهذه اللهجة.

قاسم تراجع خطوة، نظر نحو الأشجار الداكنة في الأفق، وقال بصوت منخفض:

"هذا الاسم... لا يُقال بلا سبب"

قال آسر ببطء، كأن الحروف خرجت من داخله لا من فمه:

"قمراء، هي المفتاح القادم، أليس كذلك؟"

لم يجب قاسم.

لكنه مدّ يده، وأشار نحو الشمال الغربي، حيث تتكاثف الغيوم، ويزحف الضباب.

"ثمّة مَن ينتظرنا هناك، وربّما، ثمّة مَن يُريد أن يُبعدنا عن الحقيقة"

تقدّما معاً.

لم يعودا كما كانا.

لقد خرجا من تحت الأرض...

لكن ما ينتظرهما في الأعلى، لم يكن أقل ظلمة.

وفي مكانٍ لا تبلغه الشمس،

كانت قمراء تهمس لظلٍ لا يُرى:

"اقترب، كما توقعت تماماً،

لكنه لن يصل إلى إلا مُجرداً من اليقين وذلك ما بدأت أفعله.."

منذ خرجا من الأنقاض، بدا أن الليل أطول من المعتاد.

آسر لم يتكلّم كثيراً، فقط كان يسير وكأن صوته فُقد تحت الأحجار التي دفنته.

لكن ما كان يُقلقه أكثر من الصمت، هو ذلك الإحساس الذي لم يبرح صدره منذ لحظة الهروب..شخص ما... أو شيء ما... ي

في الليلة الثالثة من الرحلة، وبينما كان قاسم نائماً قرب نار هادئة، جلس آسر وحده على جذع شجرة يحدّق في النيران،

حين سمعها...

همسة

كانت خفيفة، كأنها خرجت من بين أغصان الأشجار أو من أعماق قلبه.

التفت بعنف، لا أحد.

النار ما زالت تحترق، وقاسم لم يتحرك.

لكن الهواء تغيّر، رائحة عطر خافت... ليست من هذا العالم.

همسة أخرى، أقرب، توقف فجأة، أغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً.

حين فتحها، لمح من بعيد، بين الأشجار، ظلاً أنثوياً طويلاً، لا ملامح له، لكنّه لم يُشعره بالخوف؛ بل بشيء أشد، الحنين.

اقترب خطوة

لكنه لم يجد سوى الظلام

في الصباح، سأله قاسم:

"هل نمت الليلة؟ وجهك شاحب"

رد آسر من دون أن ينظر إليه: "هل... هل كنت تعرف امرأة تُدعى

قمراء؟"

تجمّد قاسم وهلة، ثم أنزل عينيه، وقال:

"ومن أخبرك هذا الاسم؟"

لكن آسر لم يُجب.

فقد بدأ يشك...

ليس في قاسم فقط؛ بل في كل شيء.

في الليلة التالية، كانت السماء مُقفلة بسُحب داكنة، لا نجوم فيها ولا قمر.

النار انطفأت مبكراً، والريح صارت تئنّ، وكأنّ شيئاً في الغابة لا ينام،

آسر لم يكن يحلم؛ بل كان مستيقظاً، جالساً وحده، يتابع اهتزاز الأغصان وكأنها تُشير إلى شيء خلفها.

وفجأة ظهرت،

لم تمشِ؛ بل انزلقت بين الظلال كما تنسلّ الأفاعي، لا تُصدر صوتاً ولا تُثير غباراً، وجهها مغطى بوشاح رمادي، لكن عيناها فقط، كانتا من نار باردة، تُشعل داخله ارتباكاً لا تفسير له.

همست له، لا بصوت؛ بل داخل رأسه:

"لقد رأيتني، لم تعد تحتاج إلى دليل، إن أردت الحقيقة، عليك أن تُبعده، ذاك الذي يُدعى قاسم"

تراجع آسر خطوة، ثم تمتم:

"هو الوحيد الذي بقي"

فجاءه صوتها أكثر حدة:

"بقي ليبعدك، لا ليحميك،

ألم تسأل نفسك؟ لماذا لم يخبرك شيئاً عن أمك؟ لماذا يُصرّ على أن تبحث فقط عن والدك؟"

أغمض آسر عينيه، وارتجف.

الشك بدأ يكبر في داخله كدوّامة.

"أمك لم تتركك، آسر؛ بل فُصلت عنك، وهناك من كان يعرف"

فتح عينيه فجأة، وقال بصوت مرتجف:

"ماذا تريدين مني؟"

فابتسمت تلك الابتسامة التي لا تُشبه البشر:

"أريد فقط أن ترى الحقيقة،

ولكن الحقيقة لا تظهر إلا حين تتجرّد من كل يقين"

ومع آخر كلمة، تلاشت،

لكنها لم تختفِ؛ بل دخلت أعماقه.

***

في اليوم التالي، حين استيقظ قاسم، كان آسر يلبس حزام

خنجره، ووجهه كأنّ الزمن قد نحت عليه أسابيع من الألم في ليلة واحدة.

سأله قاسم بحذر:

"هل زارتك؟"

آسر لم يُجب، فقط نظر إليه طويلاً، ثم قال بهدوء مرعب:

"إذا كنت تُخبئ عني شيئاً، فاحذر، قاسم، أنا لم أعد ذاك الصبيّ الذي وثق بك"

غامت عينا قاسم، لكن صوته ظلّ ثابتاً:

"وأنا لم أخذك لتثق بي؛ بل لتحيا، وما زلت أحاول"

آسر التفت ومشى، لكن خطواته لم تكن كالسابق.

كانت خطوات رجل... تُمسكه خيوطٌ من ظلام لا يراها.

وبينما كان يبتعد،

كانت قمراء تراقب من عمق الشجر،

وقد ظهرت لأول مرة كاملةً...من دون ظل.

لكن وجهها لم يكن بشرياً؛ بل كُتب من وجوهٍ كثيرة، تتبدّل كل لحظة، كأنها تلبس أرواحاً لا تُحصى.

همست:

"اقترب أكثر، يابن المجهولين،

فكلما أضعت يقينك، اقتربتَ مني"

أشرقت الشمس على الجزيرة كأنها لا تعرف ما تحتها من ظلال.

ضوؤها باهت، كأن الضباب قد تعلّق في السماء نفسها.

كان آسر قد افترق عن قاسم في الفجر، من دون أن يقول كلمة، مدفوعاً بنداء داخلي، شيء ما في هذه الأرض يُناديه.

مرّ بين الأشجار الملتفّة، أغصانها معلّقة كأيدي الموتى، وكل خطوة في الأرض الرطبة كانت تصدر صريراً، كأن التربة نفسها تتأوّه.

وصل إلى وادٍ ضبابيّ، بدا وكأنه مهجور منذ قرون، لكن على الرغم من سكونه، كان هناك صوت.

كلمات مبعثرة، همسات لا تُفهم، وأحياناً... اسمه.

آسـر...

مشَـى إلى أن رأى بوابة حجرية نصف مدفونة تحت الطحالب، عليها رمزٌ مألوف.

انحنى، أزاح الطين عنه، فخفق قلبه بقوة.

إنه الرمز نفسه المنقوش على مقبض خنجره.

دائرة من لهبٍ وماء، تتقاطع في منتصفها عين.

فتح الباب الصخري بصعوبة، ودخل.

الداخل كان سرداباً طويلاً، تغمره رائحة الرطوبة والعفن، لكن على الجدران، كانت هناك رسومات، صورة لامرأةٍ ذات شعر طويلٍ ملوّح،

تمسك بطفل بين ذراعيها، تحيط بها دائرة من نور،

ثم صورة لرجلٍ بجناحين داكنين، يُغمد خنجراً في قلبه،

وصورة ثالثة... لظلٍ أنثوي، وجهه غير مرسوم، لكن عينيه متوهجتان.

اقترب آسر من النقش، لم يكن يدري لِمَ يعرف، لكن داخله كان يهمس:

"هذه... أمي"

لكن ما أثار فزعه أكثر، هو النقش الصغير أسفل الرسم الأخير:

"لاريسا، التي شوّهت الضوء"

تراجع آسر خطوة، وشعر ببرودة تلسعه، وكأن المكان بدأ يُغلق عليه.

لكن صوتاً بُعث خلفه، وهو مألوف، وساخر.

الحقائق دائماً تُروى من جانبٍ واحد، يا آسر، وأنا كنت دائماً الجانب الذي لا يُراد له أن يُسمع.

التفت بعنف.

كانت قمراء تقف عند فتحة السرداب، من دون أن تتحرك،

وشعر آسر أنّ الظلال خلفها كانت تتنفّس.

قال بصوت مرتجف:

"من أنتِ حقاً؟"

ابتسمت.

"أنا من رأت الحقيقة، حين أعماهم الولاء،

أنا من سمعت صرخة أمّك، حين صمت العالم"

اقتربت، لكن الأرض لم تصدر صوتاً تحت قدميها.

"أمك لم تُقتل، ولم تهرب؛ بل حُبِست... في مكانٍ لم يعرفه حتى والدك،

وأنا وحدي أستطيع أن أريك أين"

آسر صرخ فيها:

"لماذا أنا؟ لماذا كل هذا؟"

فهمست، وهمسها كان أبرد من الموت:

"لأنك المفتاح، يابن المجهولين،

أنت الحلقة الناقصة، وأنت من سيُعيد كسر السلسلة..."

وقبل أن تكمل الحديث، اهتزت الأرض فجأة، وتساقط الغبار من السقف.

من بعيد، نادى صوت قاسم، يصرخ باسمه.

آسر تراجع، والخنجر في يده يرتجف، يناديه هو الآخر، بنبضٍ من حرارة.

التفت إلى قمراء، لكنها لم تكن هناك.

فقط خيطٌ من الدخان الرمادي، وعطرٌ لا يزول.

لم تكن هناك خطوات هاربة، ولا أثر ظلّ على التراب الرطب.

فقط السكون، كأن الوجود نفسه قد تراجع.

تقدّم ببطء نحو المكان الذي كانت تقف فيه، موضع قدميها الذي غاص قليلاً في الطين بدأ يختفي أمام ناظريه، كأن الأرض تبتلعه، أو كأنها ترفض أن تتذكّرها.

اقترب قاسم بعد لحظات، وجهه متجهم، وصوته مشحون بالقلق:

"رأيتها، أليس كذلك؟"

لم يجب آسر؛ بل كان يحدّق في الأشجار التي بدت أكثر انحناءً، أكثر سواداً.

ثم تمتم:

"هي تعرفني، أكثر ممّا أعرف نفسي"

قاسم عضّ شفته، ثم قال بهدوء:

"هي تعرفك لأنها راقبتك منذ سنين، ولم تكن وحدها"

التفت آسر إليه بحدة:

"ماذا تعني؟"

قاسم تنفّس بعمق، ثم قال:

"لن تفهم الآن، لكن هناك شيء يجب أن تراه، شيء تركه والدك هنا من أجلك، ولكننا لم نستطع الاقتراب منه من قبل، الحُجُب كانت

مغلقة، واليوم فقط، بدأت تتصدّع"

***

قاد قاسم آسر في ممر ضيق، لا تطرقه الشمس، ولا تصل إليه الطيور.

الهواء هناك كان ثقيلاً، كأن أنفاساً قديمة ما زالت تسبح فيه.

حتى وصلا إلى وادٍ عميق، تتوسّطه صخرة سوداء كأنها طُبعت من نارٍ مطفأة.

في قلبها... باب صغير، بلا مقبض، محفور عليه الرمز نفسه الموجود على خنجر آسر.

ارتجف الخنجر عند خصره، ثم أضاء بنور خافت.

قال قاسم، وهو يراقب التوهّج:

"اقترب، وافتحه"

تقدّم آسر، ووضع يده على الرمز،

فانشقّ الباب بهدوء، وتسلّلت منه رائحة غريبة، مزيج من البخور والعفن والدم.

في الداخل، كانت هناك غرفة صغيرة... باردة...

وفي وسطها قفص زجاجي، وفي داخله شيء ملفوف بوشاح أزرق ملكي.

اقترب آسر ببطء، فتح القفص، وسحب الوشاح.

تجمّدت أنفاسه.

كان في يده كتاب جلدي، قديم للغاية، عليه ختم لا يعرفه، لكن قلبه عرفه فوراً.

حين فتح أولى صفحاته، قرأ:

"إلى ابني آسر،

إن قرأت هذا فأعلم أنني مت أو لم أعد أنا، وهذه ليست قصتي فقط؛ بل قصه أمك أيضاً، هناك امرأة تدعى قمراء لا تُصدقها يا آسر، هي ليست ظلاً أو عدواً؛ بل هي أخت أمك"

سقط الكتاب من يديه.

شهق قاسم، وقال: "ماذا بك؟"

لكن آسر لم يسمعه،

عيناه كانتا معلقتين في الفراغ، وصدره يرتجف:

"أمي؟ قمراء، أختها؟"

جاء صوت من خلفه، هذه المرّة لم يكن همساً؛ بل صوتاً واضحاً كالموت:

"وأنت يا آسر من دمي، لكن ليس كما ظننت"

استدار آسر ببطء...

فرآها

قمراء

لكن لا بجسدها القديم؛ بل بجسدٍ أحاطه الظلام، وخلفه عشرات الظلال تتحرّك بلا وجوه.

قالت:

"آن أوان استردادك من النور، لقد عشت طويلاً رهن كذبة أبيك"

حين ابتلع الليل الشمس

الصراخ الذي شقّ العهد

بوابة الحرب... في الليلة الأربعين

حين صرخت لينا... وتوقّف الزمن

عندما فتح رومان باب غرفة النوم ليرى من خلفه،

كانت لاريسا، تحمل خنجر الزئبق الأحمر، بعينين تملؤهما النية القاتلة، وقلب بارد لا يعرف التراجع.

لكن لينا وقفت كجدار بين أختها وزوجها.

لينا (بصراخ): "لا تقتربي منه يا لاريسا!"

لاريسا (ببرود): "تنحّي جانباً لمصلحتك"

رومان: "إن أردتِ قتلي، فافعلي، لكن لا تمسيها بسوء"

وهنا صرخ شيء ما داخل قلب لينا، فأطلقت صرخة سحرية، كانت نادرة من نوعها، لم تكن تدري أنها تمتلكها، صرخة مزّقت الهواء، وجعلت الجدران ترتج.

توقف الزمن لحظة.

وفجأة، ظهرت بوابة سحرية في سقف الكهف، خرج منها كائن ضخم يشبه حارساً من الجان القدماء، كان مرسلاً من والد رومان نفسه، الجني الملك "زايريس الأول"

الحارس: "الملك محرز خان عهودنا، واستغل فرصة أنك بعيد عن المملكة، أرسل قواته لقتل والدك"

لاريسا انقضّت بالخنجر على الحارس، فغرزته في صدره، ولكن الحارس، قبل أن يسقط، قال:

"لقد بدأت الحرب يا رومان، انتقم ممن قتل أمك، ومزّق عهد الدم القديم"

ومات.

تجمّد رومان في مكانه، كل شيء داخله تبدّل.

كان يجهل أن والدته قد قُتلت بيد ملك البحر محرز في أولى سنوات تحالفهما، وأن والده أخفى عنه الحقيقة طوال عمره.

رومان (بغضب): "أمي، قتلها محرز؟"

ثم استدار إلى لاريسا، وقد تحوّلت عيناه إلى لهيب أزرق:

"ومن دفعكِ لطعن الحارس؟ من أخرجكِ من المملكة؟ أجيبي!"

لاريسا: "أنا أعمل لأبي، لم أخنك يا لينا؛ بل أنقذتك من هذا الجني القذر الذي دمّر عالمنا!"

لينا (بصدمة): "أنتِ خائنة، دمّرتِ كل شيء"

ومن دون كلمة أخرى، انقض رومان على لاريسا، وقيدها بسلاسل سحرية لا تنكسر، ثم أمسك بيد لينا، وقال:

"انتهت أيام السكوت، لقد أعلنت الحرب"

***

أرسل رومان رسائل إلى جميع بني الجان محتواها:

"ملك البحار محرز قتل ملكتنا قبل عشرين عاماً، وخان عهد الدم، وحاول قتل ملكنا، وسجن حورية من نسله بين يديّ في زواج قسري، آن الأوان لاستعادة الكرامة، وإشعال البحر بالنار، إنني في الجزيرة المحرمة"

اجتمع سادة الجان من كل السواحل، وذهبوا إلى الجزيرة المحرمة، كان رومان لا يشبه رومان السابق؛ أصبح قائد حرب، يقطر غضباً، وعيناه تشعان سحراً نادراً لم يُرَ منذ قرون.

في تلك الليلة، أرسل رسالة أخيرة إلى محرز، كتب فيها:

"من قلب الأعماق أتيت، وبيد النار سآخذ حقي، لا عهد بيني وقاتل أمي، ولا مكان للسلام بين من خانوا أرواح البحر،

استعد يا محرز؛ لأن البحر قادم ليبتلعك"

كان الليل على وشك الانهيار،

والبحر ساكنٌ كأنّه يحبس أنفاسه، يتهيّب الفراق.

رومان وقف أمام لينا، وقلبه يتشقّق بصمت،

وفي عينيه نار الحرب، ودموع لم يُخلق لها مكان.

كانت لينا ترتجف،

ملامح بطنها قد برزت بوضوح، تُعلن سراً لم يعد بالإمكان إخفاؤه،

هي تحمل طفل رومان، ابن الجنيّ الذي تنحدر دماؤه من سلالة نادرة، منقرضة، سلالة الظل النقي،

سلالة لا تولد إلا مرة كل قرون، ويُقال إنهم يحملون نوراً يُقاوم الظلام نفسه.

مدّ رومان يده بلطف، ووضعها على بطنها،

شعر بالنبض، فابتسم بوجع.

رومان بهمس مكسور:

"هذا النبض، هو كل ما أملك،

ليكن شاهداً أنني كنتُ هنا، وأنني أحببتكِ حتى النهاية"

أخذ يدها، ثم قبّل جبهتها ببطء، كأنّه يودّع عمره كلّه:

"لن أطلب منكِ ألا تخافي، فقلبي مذعور مثلكِ تماماً،

لكني أوصيتُ من تبقّت من سلالة الظل النقي، أن تحميك بروحها،

جعلتها درعكِ، إن اقتربت الحرب، ستُحارب نيابة عني"

أرادت أن تتكلّم، لكن الدموع كانت أسرع،

قالت بصوت يرتجف:

"وإن لم تعد؟"

أغلق عينيه، وكأن الجواب سكين:

"إن لم أعد، فسينهض البحر نفسه ويحملكِ إليّ،

سأعود... أو سيأتيكِ المدُّ حاملاً اسمي، منقوشاً على كل موجة"

تراجع ببطء، وهو ما زال ينظر إليها،

ثم أدار ظهره، وخلفه كان أعظم جيش من الجان يشقّ طريقه نحو عالم البحار، ودعها مع جيشه،

وهكذا...

بدأت الحرب،

لكن في قلب الجزيرة،

ظلّت لينا تضع يدها على بطنها، تهمس:

"عُد إليّ، قبل أن يعرف ابنك كيف يُنطق اسمك"

من** اليقين...

ما بدأت

تقدّم رومان فوق قمّة جبلية تطلّ على بحرٍ، لم يُسمع صراخه منذ قرون، كانت السحب تتكسّر فوق رؤوسهم، والرياح تدور كأنها تُفسح مجالاً لعاصفة قادمة من قلب الجنّ.

خلفه...

أعظم جيش من الجان شوهد في تاريخ البحار.

جيش لم تُبنَ صفوفه بالسلالة فقط؛ بل بالألم، بالنار، وبقسمٍ قيل تحت قبة الليل:

"دمٌ على دم، لا نسامح

وعهدٌ على البحر، لا يُكسر"

كانوا من سلالة الموجة السوداء، ومن جُند آل زايريس، ومن المتمردين الذين طُردوا قديماً من ممالك الجان العليا،

كانوا ألفاً وألفَين، ثم عشرة آلاف،

ثم صاروا أكثر من أن يُعدّوا، كأن البحر أنجبهم ليلةً واحدة ليأخذوا بثأره.

رومان وقف أمامهم، بثيابه الداكنة المرصّعة بنقوش الجان القديمة، وصوته ارتفع:

"لن أخوض حرباً بسيوف خاملة؛

بل بأرواح تعرف السحر، وتفهم الظلال

لن نغرق البحر؛ بل سنحرقه"

استدعى رومان سحرة الجان الرماديين، الممنوعين سابقاً من دخول القلاع، وعقد معهم ميثاقاً جديداً أن يُدربوا جيشه على الربط بين العناصر:

"الماء + النار = بخار قاتل.

الهواء + الظل = شبحٍ قاتل.

الصوت + السحر = صرخة تُدوّي عبر الأعماق.

أن يصهروا الخناجر القديمة بخيوط سحرية تنبع من صُلب الميثاق الأزرق.

أن ينقشوا على دروعهم تعاويذ تمنع تسلل محرز إليهم عبر الماء.

ولأيام وأسابيع، لم يعرف الجنّ سوى التدريب،

قتال في العتمة

وقوف في صمت

نوم بأعين مفتوحة

واختبارات قلبها رومان بنفسه، من لم ينجُ، لم يُقبل في الصفوف

الأولى.

وفي إحدى الليالي، خاطب رومان قادة جيشه الثلاثة:

"لن نذهب للقتال فقط؛ بل للعدالة،

كل رمح سترفعونه، يُمهّد لاسم ابني الذي لم يُولد بعد"

سكت، ثم أردف بنبرة منخفضة:

"وكل قطرة دم، تقرّبني من لينا"

صمت الجنّ، ثم ارتفعت الهتافات.

وفي الأفق،

كان البحر يستعدّ للارتجاف؛

لأن من اقترب هذه المرة، لم يكن جنياً فقط؛

بل وريث الغضب، وقائداً لا يعود إلا بالنار، أو فيها.

في أعماق البحر

في قصرٍ من شعاب سوداء لا تصل إليه الشمس

جلس محرز، ملك البحار، على عرشه المرجاني،

يحدّق في ساحةٍ خاليةٍ من الولاء، تتردد فيها أصداء الخيانة.

التيارات من حوله كانت باردة برودة غير طبيعية،

كأن البحر نفسه لم يعد يثق بمِلكه،

وكانت نظرته شاردة إلى الفراغ، إلى الخلف،

إلى اسمٍ لم يغب عن لسانه، على الرغم من كل ما حدث.

محرز بصوت مبحوح:

"لو كانت لاريسا هنا،

لخُسمتِ الحرب"

لقد بنى خطته كاملة على حضورها؛

لاريسا، ابنته الذكية، الجريئة، القاسية عند اللزوم،

التي غرس فيها مكر السلالة وسحر السرائل،

لكنها الآن، مقيّدة،

بسلاسل سحرية في جزيرة محرّمة، يحرسها جنّ من "الظل النقي"،

ويعيش فيها جرحه الآخر، ابنته لينا.

شهق محرز شهقة طويلة، كأنها أخرجت من صدره قرناً من الذكريات،

ثم نهض ببطء، ومشى بين أصدافٍ مضيئة نحو مرآة الماء الأزلي،

التي تُريه ما لا يراه غيره.

رفع يده، فظهرت صورة باهتة،

لينا

تجلس قرب شجرة لؤلؤية، تضع يدها على بطنها، وتهمس،

لم يكن يعلم أنها حامل،

ولم يكن يعلم أن ابن رومان يسري الآن في دم ابنته.

وفي تلك اللحظة، تحوّلت ملامحه،

الحزن في عينيه انطفأ،

والذكريات تمزّقت،

وبقي شيء واحد فقط:

الحرب.

محرز:

"لا بأس يا لينا،

إن سجنت أختك، فسأستردك أنتِ"

استدار نحو قائده الأعلى "كاهل"، الذي كان بانتظاره خلف أعمدة

المرجان،

محرز:

"أريد خطّة،

تُخرج لينا من الجزيرة،

لا بالحرب؛ بل بالخداع"

كاهل (بتردّد): "لكنها محمية بسحر الظل النقي يا سيدي، لا يمكن الاقتراب"

محرز بابتسامة باردة:

"لا نقترب؛ بل نجذبها إلينا"

ثم همس بخطة قديمة،

خطة لا يلزمها جيوش؛ بل كلمات، وذكرى، وخيانة جديدة.

محرز:

"أريدك ان تعمل لتجهيز خطة تجعل رومان مكسوراً، وتعلّم ابنتي درسها، اذهب إلى المخطوطات، وابحث لنا عن طريقة استرجاع أي كائن ممكن أن يساعدنا"

محرز (وهو يتبسم):

"إن لم أستطع حماية بناتي،

فسأجعل منهن سيوفي"

انحنى كاهل، وبدأ يبحث ما بين المخطوطات عن أخطر كائن من الممكن استدعاؤه،

ولفتت عينه لفافة قديمة من جلد سمكة أسطورية مُحنطة، مكتوب عليها بلغة اليزم لغة الظلال، وقال لسيده:

"قبل آلاف الأعوام، وجدت كائنات خُلقت من بقايا الحروب السحرية، لا تنتمي إلى الجن أو إلى البشر؛

بل إلى الفراغ نفسه"

محرز:

"تلك المخلوقات التي انقرضت؟"

كاهل بابتسامة مسمومة:

"بل نُسيت ولم تمت، وفي هذه الحرب سأعيد أولها"

في قاعةٍ مظلمة تحت قصر محرز، لا تُضاء إلا بسحرٍ أخضر باهت ينبض من الجدران،

كان كاهل يقف وحده معظم الليالي، يراقب رموز الطقوس التي رسمها منذ أيام.

معه، كان ساحرٌ يَزْمنّ شاحب الوجه، يرتجف كلما قرأ تعاويذ الظل،

رجلٌ نُفي من طائفته بسبب فشله في التحكم بالمخلوقات الباطنية، لكن كاهل لم يكن يبحث عن ساحر قوي،

كان يبحث عن أداة، حتى لو احترقت بعد الاستخدام.

كاهل (بصوتٍ غاضب):

"قلتها لك، إن لم تُفتح البوابة قبل اكتمال القمر، فسأفتحها بدمائك"

الساحر (مُتلعثماً):

"هذه الطقوس ليست بشرية، ليست جنية حتى، لم يفتحها أحد منذ عصر الظلال"

مرت أربعة أيام متتالية، وكاهل لا ينام، لا يأكل، عيناه تحترقان من السهر والتركيز،

وكل ليلة، كانت المحاولة تنتهي بالفشل،

الرموز تشتعل، ثم تنطفئ،

البوابة ترتج، ثم تصمت.

وفي اليوم الخامس، كان جسد الساحر يهتز، عيناه تنزفان دماً أسود،

وهو يهمس:

"إنها لا تُفتح، لن تُفتح، هذا الكائن خارج نطاق الحياة"

كاهل (بهدوء مرعب):

"أعرف؛ ولهذا سأعبر له بشيءٍ أقرب إلى الموت من الحياة"

ثم اقترب منه،

ورفع خنجراً محفوراً عليه اسم الوحش القديم:

"آور-شازاك"

أي؛ الذي يرى القلوب.

الساحر (يصرخ):

"لا! أنت مجنون! لا تفعل!"

لكن كاهل لم يتردّد،

طعنه في القلب، وسكب دمه داخل دائرة الاستدعاء،

صرخ الساحر صرخة تشقّ البحر من تحت،

وامتزجت دماؤه بالرموز،

وانفتح صدع في الأرض، صدع لا يشبه شيئاً من هذا العالم.

انبعث منه هواء بارد، كأن العدم نفسه يتنفّس،

وصوت ليس صوتاً؛ بل فكرة مخيفة تسري في العظام:

"من دعاني؟"

كاهل ابتسم أخيراً.

كاهل (بصوتٍ كالهَسيس):

"أنا، من سيحرّرك"

ثم نهض الوحش... من الظلّ،

كائن مشوّه يشبه شبحاً قد خرج من كوابيس شعبٍ منقرض،

جسده يتشكّل ويتلاشى،

أعينه كثيرة، تتكاثر كلّما نظر،

قدماه لا تمسان الأرض؛ بل يمشي كأنه يطفو، والبحر من تحته يختنق.

كاهل (يهمس):

"اذهب إلى الجزيرة المحرّمة،

واجلبها إليّ، حية أو ميتة"

الوحش لم يجب،

لكن البحر تحرّك،

والأصداف انغلقت،

والأمواج غيّرت اتّجاهها.

كان ذلك أوّل أثرٍ لعودة مخلوقات الظلال المنسيّة.

لكن السؤال الذي لم يطرحه كاهل:

"من تحكّم بمن؟

هو بالوحش؟

أم الوحش به؟"

دلف كاهل إلى القاعه ووجهه مغطى بالسحر والسهر،

خطواته كانت ثقيلة، لكن في عينيه نارٌ لا تشبه أي شيء رآه محرز

من قبل،

نهض الملك من عرشه، واقترب، وفتح ذراعيه كمن يستقبل نبأ نصر.

محرز:

"هل فعلتها؟"

كاهل:

"أعدته من بين العدم، ومنحني سمعه"

محرز:

"رأيته؟"

كاهل:

"نعم، عظامه من ظلال الذاكرة، وعيناه لا تعدّ، هو لا يحتاج إلى اسم، هو سلاح، وسيكون بيدنا حين تبدأ المعركة"

أشار محرز إلى الحراس بأن يغادروا، ثم وقف أمام كاهل، وجدياً.

محرز:

"هذا الوحش، لا يتحكّم به أحد، كيف ضمِنت طاعته؟"

كاهل:

"ربطته بسحر من اليَزم، وسقيناه من دم مئة مخلوق مقدّس،

هو لا يعرف الوفاء، لكنه يعرف مَن أطلقه"

محرز:

"وأنت متيقن من أنه لن يلتفت ضدنا؟"

كاهل:

"ما أطلقته ليس ناراً عمياء؛ بل سكيناً حادة، لا تذبح إلا الهدف المحدد،

سأقوده بنفسي، وسأكون في الجبهة الأولى"

ثم اقترب منه، وهمس:

"فقط أريد شيئاً واحداً بالمقابل، أن تُسقط رومان بيدي"

محرز:

"أقسم لك، لك ضربة البداية..."

لكن قبل أن يُكمل، بدأت مياه القاعة ترتج،

وصوت أشبه بنبضات قلبٍ قديم تردّد في الجدران.

ارتفعت عين محرز إلى البلّور السقفي، وهناك،

مر ظلٌ عملاق، بلا ملامح،

كأن شيئاً ينظر من وراء العالم.

كاهل:

"إنه يستيقظ، ويتشمم أثر الحقد"

محرز:

"هل هذه نهايتهم؟"

كاهل:

"لا، هذه بدايتنا"

عينٌ ترى، وصوتٌ لا يُنسى

في قلب الجزيرة المحرّمة، حيث الليل يحكم الأرض، والبحر لا يكاد يهمس، جلست لينا على صخرة متكسرة، جسدها مُتعب، وروحها مشتعلة، إلى جانبها كانت تجلس جنية الظل النقي، التي لا تتركها لحظة واحدة.

كانت لينا تشعر بثقل الحمل يتزايد داخلها، ليس فقط الحمل بجنين يحمل دم رومان؛ بل إنه يحمل لعنة قد تغير مصير ممالك البحر والجان، كانت تحس بالنار تلهب جوفها، وكأن جنينها يحمل قوةً لا تعرفها بعد، ولكنها تدرك ثقلها على كتفيها.

"لينا"، همست جنية الظل بنبرة ناعمة، كأنها تتحدث إلى زهرة تكافح في عاصفة:

"هذه القوة التي تنمو داخلك ليست مجرد حياة، إنها وعد وتهديد، أنتِ لا تحملين فقط دم رومان؛ بل مصير أجيالٍ لم تولد بعد"

أخذت لينا نفساً عميقاً، تراقب الأفق حيث يلتقي البحر السماء، وتذكرت لحظاتها مع رومان، صمتهما المليء بالكلمات غير المنطوقة، وعدهما في صمت الليالي.

***

مرّت أسابيع وأشهر، وحملها يزداد وضوحاً، وألمها يزداد قسوة، لكنها أصبحت أكثر قوة.

جنية الظل كانت ترافقها في كل لحظة، تساعدها في التحكم

بالظلال التي تلتف حول جسدها، تبرد لهب الألم، وتنقل إليها طاقة غامضة تخفف ثقل الحمل.

في إحدى الليالي، وبينما كانت لينا تستلقي على الأرض الباردة، تحس بألم الولادة يقترب،

قالتها جنية الظل:

"قريباً ستلدين، وستولد الحياة الجديدة بيننا، لكنها لن تكون فقط طفلاً؛ بل شرارة نار تغير مجرى التاريخ"

تمسكت لينا بالجنية، شعرت بالخوف يتسلل إلى قلبها، لكن في الوقت نفسه، كان هناك أمل جديد ينبثق من داخلها.

لحظة الولادة كانت مختلفة تماماً عن أي تجربة عادية.

كان الألم مزيجاً من نار في جسدها، وظلام يحيط بها، صوت البحر يعصف في الخلفية، والرياح تعصف كأنها تعانق الروح.

جنية الظل كانت هناك، تلقي تعويذات من الظلال على الجنين، تحميه من لعنة محرز، وتبث فيه قوة لا تُصدق.

صرخت لينا بصوت مرتفع، آهاتها تملأ المكان، لكنها لم تكن وحيدة، كانت حياة جديدة تُولد، دم جديد يسري في عروق ممالك البحر.

وفي اللحظة التي خرج فيها الطفل إلى الحياة، شعرت لينا بانفجار طاقة غريبة، ظلال وحرقة في الوقت نفسه، لكنها عرفت أن هذه اللحظة هي بداية النهاية، وبداية أمل جديد.

تقدمت الجنية، ويداها ترتجفان على الرغم من كونها من الظلال،

ورفعت بين ذراعيها ذلك الذي خرج للتوّ إلى هذا العالم.

كانت نظراتها جامدة، كأنها لم ترَ طفلاً؛ بل نبوءة تتحقق أمامها.

لينا لم تبكِي؛ بل شهقت.

كأن شيئاً ما داخلها كُسر أو عاد.

ارتعشت شفتاها، مدت يدها المرتجفة إليه، لمسته، فسكن الألم،

كل العذاب الذي مرت فيه، كل الخوف، كل الدم الذي سال منها في هذه الأشهر، بدا كأنه تلاشى في لحظة.

الجنية نظرت إليها، وهمست:

"لقد أتى، والجزيرة سمعته"

رفعت لينا عينيها بصمت، لكنها لم تبتسم،

لم تكن تشعر بالنصر، ولا بالراحة،

كانت فقط تشعر بثقل، بثقلٍ أكبر من هذا الطفل،

ثقل اسمه "الحرب القادمة"

الجنيه اقتربت منها، وجثت على ركبتها، وضعت الطفل في حجرها، وقالت بصوتٍ منخفض:

"من الآن، كل شيء سيتغيّر،

أنتِ لم تعودي رهينة، ولا زوجة جني،

أنتِ الآن أم شيء لا يمكن فهمه، ولا كبحه"

تشققت المياه من تلقاء نفسها، من دون ريح، من دون حركة قمر، وأصوات حيوانات البحر توقفت، كما لو أن أحدهم أمرها بالصمت، عند قاع الأعماق، حيث يُقال إن الزمن يمرض،

جلس محرز في محرابه، يراقب سلاسل الذهب التي تتدلّى من سقف كهفٍ عائم.

كان يستمع إلى صوت تنفّسه، فقط، وكأنه ينتظر.

وفجأة...

توقفت قطرات الماء عن السقوط.

ثم سُمعت (نقرة واحدة) على صدفته الملكية، لم يلمسها أحد.

رفعت إحدى العذارى رأسها، وقالت بصوتٍ مبحوح:

"يا مولاي، النذير استيقظ"

قال محرز من دون أن يلتفت:

"أيّ نذير؟"

ردّت:

"نذير الولادة، يا سيد البحار، الدم الذي لا نعرف لمن سيصرخ أولاً، قد وُلد"

في لحظة، تحوّل لون الماء حول محرز إلى أسود داكن، واهتزّ العرش،

ثم تشقّق سقف الكهف ببطء، ودخل منه كائن غريب الشكل، ليست له عينان، وليس له فم،

جسده مكسوّ بقواقع تنبض وكأنها قلوب، وكان يحمل بين يديه ريشة متفحمة.

رفعها بصمت، ثم غرسها في الأرض، فانفجر منها بخار أحمر.

ومن دون صوت، ظهرت على سطح البخار كتابة قديمة:

"وارث الميثاق قد وُلد،

نصفه لهيب، ونصفه ظِلّ،

فإن نجا، لن يبقى لعرشكَ أثر"

وفي الطرف الآخر من البحر،

كان رومان يراقب الأفق من فوق منحدر حجري، لا أحد فيه سواه.

الريح سكنت، السحب انشطرت،

ولوهلة، توقف كلّ شيء.

ثم...

رنّ في رأسه صوتٌ لا يُشبه شيئاً عرفه من قبل،

صوتٌ لا منبع له، ولا لغة له، كان نبضاً،

ثم تساقطت فوقه ريشات رمادية من السماء، وكأن البحر نفسه فقد أحد أبنائه.

أمسك بإحداها، شعر بحرارتها،

وقبل أن ينطق، شقّت صخرة خلفه نفسها، وخرج منها كائن نحيل يلبس ثوباً طويلاً من الرماد،

وجهه لا يحمل ملامح، لكن من حوله كان الهواء يهتزّ كأن الوجود كله يهمس:

"لقد وُلد، ولن يكون لك وحدك"

ثم اختفى.

رومان لم يتحرك، فقط شدّ قبضته، وحدّق في البحر، وقال من دون صوت:

"فلتستعدّ السماء، لقد جاء الذي لن يُغفر"

داخل المغارة المقدسة، حيث كانت الجنية "نقيا"، تُنهي طقوساً لا تعرفها سوى قلة من نساء الظل،

جلست لينا ودماؤها مختلطة بالماء والملح، بين ذراعيها جسد صغير لم يُصدر صراخاً بعد،

كان الطفل يتنفّس، نعم، لكن عينيه كانتا مفتوحتين،

واسعتين، بلون رماد متجمّد، تتّسع فيهما دوّامات لا تُشبه أعين الرضّع،

نقيا نظرت إليه بصمت،

ثم تمتمت:

"هذا الطفل، لم يخرج من جسدك فقط؛ بل من رحم شيءٍ أقدم منكِ"

لينا كانت تتنفس بصعوبة، وجهها شاحب، والدم يلطخ شعرها الطويل وهي تحتضنه،

لكنها لم تستطع التوقّف عن النظر في عينيه.

همست له:

"لماذا لا تبكي؟"

فجأة، ارتجّت الأرض تحتهم،

اهتزت الصخور، سقطت حواف من السقف، وبدأ الضوء الذي تسلّل عبر فتحة المغارة، يُظلم تدريجياً،

كما لو أن الشمس نفسها تخاف مما خرج لتوّه.

رفعت نقيا رأسها، وحدّقت في الأعلى:

"لقد شعروا به، السلالة العليا،

بعض الظلال سترحب، وبعضها سيبدأ التحرّك"

فوق سطح المياه الممتدة حتى الأفق، شقّ صمت العالم صوتٌ عظيم، كأنه أُصدر من قاع الأرض نفسها زمجرة عميقة اجتاحت السفن القريبة، وارتجف جلد البحر تحتها، ثم ظهرت سفينة سوداء من بعيد، ببطء كأنها تقاوم الزمن، لكن كل موجة انقسمت أمامها من دون أن تمسّها قطرة.

لم تكن سفينة عادية، بدنها مصنوع من معدنٍ لم يُعرف بعد، وعلى جانبيها نُقشت رموزٌ قديمة بلغة لا تُقرأ إلا في كتب الأساطير المنسية.

على رأسها رفرف علم غريب، درعٌ مائي تتوسّطه عين زرقاء تحيط بها ست نجوم.

همس قبطان إحدى السفن المراقبة بدهشة:

"المملكة الزرقاء! هذا مستحيل!"

لقد ظنّ الجميع أن مملكة "أوراليم" تلك التي سكنت أعماق المحيطات الشمالية اختفت منذ ألف عام، قيل إنها سكنت تحت جبل الماء الأزرق، في بُعدٍ لا يُفتح إلا لمن خلع اسمه وترك ظلّه خلفه.

لكنها الآن، خرجت.

وعلى ظهر السفينة، وقفت الملكة نَايرا، بردائها المائي المتغيّر، تاجها المصنوع من لآلئ حيّة تتنفّس، وعصاها المصنوعة من عظم أحد ملوك الحيتان القديمة.

مدّت يدها فوق البحر، وارتفع الماء حول السفينة كجدارٍ حي، يحمل رموزاً سحرية بدأت تتوهج باللون الأزرق المشعّ، في لحظة، انفجرت موجة من الطاقة النقية، اجتاحت الأفق، كأن البحر نفسه أعلن أن الحرب لم تعد أرضية؛ بل كونية.

وبصوتٍ لم يُسمع فوق البحر منذ قرون، نطقت:

"لقد تكسّرت المعاهدة،

أبناء الأعماق لن يقفوا صامتين،

من مسّ الطفل، مسّ قلب المحيط،

ومن مسّ قلب المحيط، فقد أذن لنهاية الأبد أن تبدأ"

ثم اختفت السفينة، كما ظهرت، بين طيات الموج، لكن الصدمة بقيت...

والبحر لم يعد كما كان.

في المغارة، وبين ذراعي لينا، بدأ الطفل يرمش للمرة الأولى،

وفي مكانٍ بعيد، داخل قصر مهجور تحت قاع البحر، انكسرت مرآة منسية، وخرج منها ظلٌ آخر.

لكن هذه المرة، لم يكن وحده.

خرج من المرآة ظلّ طويل، يمشي كأنه لا يلامس الأرض، كان جسده يتلوى بهدوء كدخان كثيف، وعيناه -إن صحّ تسميتهما بذلك- كانتا دوّامتين من سوادٍ نقيّ، لا يُرى له قرار.

وقف عند عتبة القاعة، حيث كانت بقايا العرش الحجري تتناثر كعظام منسية،

ثم تكلّم، لا بصوت؛ بل برجّة داخل جدران المكان، كأن الحجر نفسه فُرض عليه أن ينقل الرسالة:

"إن تحرّكت أورواليم، فالأخت الأخرى لن تصمت"

وفي طرف القاعة، على جدارٍ من صدفٍ متحجّر، انشقّت شقوق

دقيقة، خرج منها خيط ضوء بنفسجي، وظهر خلفها وجهٌ لا ينساه إلا من رآه ميتاً:

"الملكة إيلينا، الحاكمة المنفية من مملكة الغرقى، التي قيل إنها التهمت أبناءها كي تحكم إلى الأبد..."

ضحكت ضحكة جافة، ثم قالت:

"أوراليم تحلم بالسلام، نحن نحلم بنهاية السلام،

إن وُلد من كسر صمت الظلال،

فليُفتح الباب الرابع"

وبإشارةٍ منها، بدأت مياه البحر تحت المملكة تتراجع، كما لو أن شيئاً أكبر من البحر نفسه يستعدّ للنهوض، من ظلام الأعماق، بدأت العملاقة النائمة التي نُسيت في قصص الخرافة تستفيق، كان جلدها صلباً كقاع المحيط، وعينيها بحجم القمر، كل خطوة منها كانت تُغيّر التيارات حول العالم.

في المغارة، شهقت نقيا بصوتٍ غاضب، وصرخت:

"لقد حرّكوه، الباب الرابع!

من فعل هذا؟ لم يحن الوقت!"

لكن لينا لم تجب، كانت تحدّق في طفلها الذي بدأت يداه الصغيرتان ترتجفان،

قطرات الماء التي لامسته، بدأت تتبخر.

همست لينا، بشفاه مرتجفة:

"هو من سيُفتح بيديه، أو يُغلق"

وفي أعماق السماء، حيث لا يُفترض أن تكون للبحر كلمة،

بدأت النجوم تُغيّر أماكنها،

كأن أحداً أو شيئاً، أعاد كتابة الخريطة،

والعالم، كما عُرف من قبل، بدأ يتهيّأ ليُنسى.

في الخارج، كانت الرياح تغيّر نبرتها، والبحر يرسم دوائر لا يُجيدها إلا حين يكون نذيراً.

الطيور التي حلّقت فوق الجزيرة المقدسة سقطت واحدةً تلو الأخرى، بلا سبب، وكأن الهواء نفسه بات ثقيلاً على أجسادها.

أما الطفل، فبدأ يصدر صوتاً،

لم يكن بكاءً؛ بل أنيناً قديماً، يُشبه عزفاً ضائعاً من لحن كُتب قبل بداية الزمن.

ومع كل نغمة خرجت من فمه الصغير، كانت الرموز القديمة تنكشف على جدران المغارة، نقشٌ لم تصنعه يد، ولم يُرَ من قبل.

حتى نقيا -التي عاشت قروناً بين الظلال- ارتجفت، وقالت وهي تزحف إلى الوراء:

"إنه لا يستدعيهم، إنه يوقظهم،

الذين نُفيوا خلف المرايا السبع،

أولئك الذين لا يملكون أسماءً"

فجأة، اشتعلت النار في أطراف المغارة لا لهباً؛ بل ضوءاً متكسّراً، كأن الشمس تذكّرت شيئاً كانت تخشاه،

وحين نظرت لينا إلى ابنها، رأت في عينيه انعكاساً لثلاثة ملوك،

واحد يلبس تاج الماء،

وآخر يلبس عباءة من ريح،

والثالث بلا رأس.

صاحت:

"ما هذا؟ من أنتم؟"

لكن الطفل نظر إليها، للمرة الأولى بشيء من الوعي،

ثم ابتسم.

نعم، ابتسم، على الرغم من أن الابتسامة كانت غريبة على وجهٍ لم يصرخ بعد، وحين فعل، تهشّمت الصخور خلفه، وسُمعت صرخة في أعماق البحر،

صرخة رومان،

كان في موقع بعيد، يقف فوق حافة جرفٍ مطلّ على المحيط، حين شعر أن شيئاً ما انكسر فيه،

سقط على ركبتيه، وارتجف قلبه، كأن أحدهم سرق منه شيئاً لم يعلم أنه كان فيه.

قال في نفسه:

"إنه وُلد، وأنا لست هناك"

لكن صدى صوته لم يذهب شدى،

فمن تحت الجرف، خرجت يدٌ مغطّاة بالقشور، لا بشرية، ولا بحرية،

أمسكت بحافة الصخور، ثم ظهرت عينٌ واحدة،

حمراء،

تنظر إليه، وتهمس بلغة لا تُترجم:

"أخطأت مرتين يا رومان،

والثالثة ستكون دماً"

ثم تلاشت.

وراءه، في السماء، كانت سفنٌ جديدة تشقّ الغيوم،

سفنٌ لا ترفع أعلاماً،

لأنها لا تنتمي إلى أحد.

وهكذا، بدأ البحر يستعدّ لحرب لا تحمل اسماً،

وصار الطفل الذي لا يبكي علامة البدء.

ولم يكن أحد يعلم...

من سيبقى،

ومن سيئنسى.

***

وقف رومان فوق سطح السفينة الرئيسية، والضباب يلتفّ حول الأساطيل المتجمعة كأشباح البحر، خلفه، اصطفّ قادة الجان، الجنود المدرّعون، والفرسان الذين عادوا من منفاهم طوعاً، حين سمعوا باسم "رومان آل زايريس" يُنادى من جديد.

كان صامتاً... ينظر نحو البحر وكأنّه ينتظر أن يتكلّم،

ثم قال بهدوء:

"لقد سمعوه"

اقترب منه أحد القادة، الجنرال "ثايون"، وهو من سلالة الجنّ الناريين، وقال بتوجّس:

"من؟ أوراليم؟ أم مملكة الغرقى؟"

أجابه رومان من دون أن يلتفت:

"كلهم، حتى من يجب أن لا يسمع، سمع"

جاء صوت آخر من الخلف، أكثر حدة:

"مولاي، لماذا لا نضرب أولاً؟ قواتنا مستعدة، والموج تحتنا يطيعنا!"

كان المتكلّم هو القائد "فاريل"، فارس البحر الفضيّ، الذي عاد من منفاه الجليدي بعد ثلاثين عاماً من الصمت.

استدار رومان ببطء، ونظر في عينيه، وقال ببرود:

"وأين يضرب فاريل؟ في الماء؟ في الصدى؟

أعداؤنا الآن... لا يتحركون كالبشر، ولا يفكرون كالسادة..."

قاطعهم صوت من السماء،

صرخة، لكنها لم تكن بشرية،

كانت صرخة صخر يُكسر بضغط الموج،

رفع الجميع رؤوسهم، فرأوا النجوم تُحجَب عن السماء،

كائنٌ ضخم كان يعبر الأفق، بين السماء والبحر، مغطّى بجلدٍ زجاجيّ عاكس، كأن الليل نفسه لبسه.

تراجع بعض الجنود خطوةً لا إرادية، وقال أحدهم:

"هذا، هذا ليس من بحرنا"

لكن رومان رفع يده بثبات، وقال:

"لا تتحركوا؛ إنه رسول، ليس وحشاً"

هبط الكائن العملاق قرب سفينتهم، لكنه لم يلمس البحر، بقي عالقاً فوقه، يطفو من دون جهد، ثم من قلبه، انشقّ فتحٌ دائري، خرجت منه أنثى نحيلة، تلبس درعاً من عظام شفافة، وشعرها يطفو في الهواء.

قالت بصوتٍ بلا صدى:

"أنا مبعوثة أوراليم، أتيت برسالة الملكة نايرا إلى رومان آل

زايريس"

انحنى بعض الجنود، بينما وضع رومان يده على قبضته، وقال:

"قولي ما عندك"

قالت الجنية من دون تردد:

"الطفل الذي وُلد، ليس فقط من دمك؛

بل من نبضٍ أقدم من الممالك،

ومن لعنةٍ لم تُكسر بعد"

ارتفعت همهمات خلفه، لكن رومان لم يتحرك،

ثم أضافت:

"لقد قررت أوراليم أن تتدخل،

لكن ليس معك، ولا ضدك؛

بل لحماية التوازن"

انفجر الجنرال ثايون صارخاً:

"توازن؟ بعد كل ما جرى؟ ابن رومان خُلق، والممالك تشتعل، وأنتم تتكلمون عن توازن؟"

لكن رومان أشار إليه ليصمت.

اقترب خطوة من المبعوثة، وقال ببطء:

"ومن قال إنني أطلب حلفاء؟"

رفعت المبعوثة رأسها بحقة، وقالت:

"ومن قال إننا نخافك؟"

ابتسم رومان ابتسامة صغيرة، فيها بقايا من الجني الذي كان يوماً ملكاً، ثم همس:

"سترون"

وبلحظة، انشقّ البحر تحت السفينة،

ارتفعت المياه كالبركان، ومن عمقٍ بعيد خرجت أجسادٌ معدنية، مدرّعة، أعينها مشتعلة بالأخضر، تحمل رمحاً يلمع كأنه من نجمة مذبوحة،

صرخ أحد الجنود بدهشة:

"إنها قوات الحرس الغارق! لكنهم انقرضوا!"

هتف ثايون:

"كيف؟ من أي بحر استدعيتهم؟"

أجاب رومان بصوتٍ جهوري:

"من بحر النسيان،

من حيث دفنّا الموتى الذين رفضوا الموت"

ثم التفت إلى جنوده، ورفع صوته:

"أيها الجان! من ما زال يؤمن بسلامٍ شرق منا، فليغادر،

ومن قرر أن يعود إلى البحر لا ليموت؛ بل ليُرعب،

فليجهّز قلبه"

صرخوا جميعهم بصوتٍ واحد:

"لأجلك، ولأجل من لم يُدفن بعد"

ثم هتف رومان آخر جملة، وهو يرفع يده نحو السماء:

"فلتُفتح المرايا،

لن ننتظر أن تأتينا الحرب، نحن من سيوقظها!"

وتحرّكت السفن،

تحتها موجات من الجنّ الغرقى،

فوقها صرخات الجان الأحرار،

وفي المقدمة...

رومان، بنظرته التي لا تعود:

"ولم يعلم أحد... أن من يفتح الحرب،

لا يغلقها إلا إذا فُقِد"

كانت لينا ما زالت تحتضن الطفل، تُقربه من صدرها كأن قلبها وحده حاجز بينه والعالَم.

لكن العالَم كان قد انكسر بالفعل.

من فتحة المغارة، دخل الدخان الأسود كأنه ريح ملعونة، تزحف

على الأرض وتمتصّ النور،

ثم برز منه شيء،

أور شازاك، وحش الكاهن الملعون، الذي لا يتبع زمناً؛ بل يتغذّى على كسره.

صرخت لينا وهي تهتز: "نقيييياااا"

وانطلقت الجنية العتيقة من ظلال المغارة، وجهها مضاء بنارٍ خضراء، وثوبها تمزّق إثر الطقوس القديمة،

وقفت بين لينا والمخلوق، ورفعت عصاها التي لم تُستخدم منذ قرن، ثم صرخت:

"أوقفه، أيتها الأرض! اربطيه بالجذور!"

لكن أور شازاك لم يتوقّف؛

بل بخلاف ذلك، انحنى إلى الأمام كحيوانٍ يزحف، ثم ركض،

هزّت خطواته الصخور، وانقضّ بجسده الرمادي على نقيا،

لكنها لم تهرب،

رسمت دائرة نار بينه ولينا،

وقالت:

"اذهبي! القارب... الآن"

كانت لينا تُقاوم الألم، والدم ما زال يتدفّق منها، لكنها زحفت نحو الجانب الآخر من المغارة حيث كان القارب الصغير،

وضعته نقيا هناك تحسّباً، قارب مقدّس لا تطاله موجة.

وضعت لينا آسر فيه، ووجهه الصغير ينظر إليها بعينين رماديتين ساكنتين، ثم همست وهي تدفعه نحو البحر:

"سامحيني يا روحي، سامحيني"

دفعت القارب،

انسحب مع التيار البطيء خارج المغارة، بينما لينا تغور تحت الظلّ.

لكن صوت نقيا قطع كل شيء،

صرخة،

لم تكن كأي صرخة، كانت مثل اهتزاز في الهواء، كسكين غُرزت في قلب الجبل،

التفتت لينا، فرأت ما لا يُحتمل،

أور شازاك أمسك بجسد نقيا من وسطها، وبدأ يشقّه ببطء،

ليس ليقتلها فقط؛ بل ليمحوها من الوجود،

دمها لم يسِل؛ بل تبخر في الهواء كأنها تُسحب إلى عالمٍ آخر.

صرخت لينا:

"نقيااااا!"

لكن الوحش رفع رأسه، ونظر إليها بعينيه الحمراوين.

رغبت في الجري، لم تستطع،

رغبت في الصراخ، لم يخرج منها شيء،

وفي لحظة، كان أمامها،

لم تلمحه وهو يتحرك، فقط وجدته هناك.

رفع يده الطويلة، التي تنتهي بأصابع من عظم وأسلاك متحجرة،

ثم وضعها على كتفها.

وفي طرف عينها... لمحت آخر لحظة، القارب الصغير، وقد اختفى خلف الأمواج،

همست:

"ابني، عِش"

ثم ضمّها الوحش بذراعيه، وانسحب إلى قاع البحر، بسرعةٍ لا يمكن وصفها،

كأنّه لم يأتِ قط.

في مكانٍ بعيد، على ظهر البحر،

كان القارب الصغير يطفو في صمت،

وفيه رضيع، لا يبكي، لا يصرخ،

فقط ينظر إلى السماء، وعيناه تعكسان ثلاث نجوم سقطت قبل أن يُخلق.

وفي الأعماق، حيث لا يلمس الضوء شيئاً،

احتجزت لينا،

في غرفة صخرية مغلقة،

بين جدران تنبض وكأنّها قلب،

وتهمس أصوات كثيرة،

لكن جميعها يقول الجملة نفسها:

"هذا هو الثمن، للدماء التي حاولت النجاة"

في غرفة العرش القديمة، حيث لا تُضاء الجدران بالنار؛ بل بهالاتٍ من ظلالٍ خضراء، جلس رومان في صمت،

أمامه، خريطة بحرية مُمزقة،

وإلى يساره، ثلاثة من قادة جيشه، يراجعون آخر ما استُكشِف من سواحل المحيط الملعون.

كانوا يتحدثون عن العتاد، عن تكتيك دخول المملكة المحرّمة، عن مدّ الجيوش في الممرات الغارقة،

لكن رومان لم يكن يسمعهم.

شيءٌ في صدره كان يهتز، كأن قلبه استشعر ارتجافاً بعيداً.

وفجأة...

ذُفِع باب القاعة بعنف.

دخل رسولٌ بملابس ممزّقة، جسده يرتعش، وصدره يعلو ويهبط كأنّه هرب من الجحيم نفسه.

صرخ وهو يجثو:

"سيّدي رومان! من... من قلب مملكة محرز، وصلتني رسالةٌ لا تحمل توقيعاً؛ بل رائحة دمٍ وخراب"

اقترب، ورفع لفافة مشقوقة بنقشٍ قديم، نقش سلالة البحر السوداء.

فتحها رومان ببطء، وبين الكلمات المرتجفة، قرأ:

"التي أحببتها، لم تمت،

لم تَذهب إلى النسيان،

لقد أُخذت،

وها هي الآن... خلف جدراني،

لا تَبحث عنها؛ لأن مَن يدخل هذا العمق، لا يخرج منه حياً،

أنت تعرفني... يابن لوراد زايريس،

وأنا... أعرف ماذا يعني أن يُولد وريثك"

وقّع في الأسفل...

محرز.

ارتجف القادة الثلاثة،

لكن رومان، لم يُحرك ساكناً، فقط رفع رأسه، ونظره لا يُشبه أيّ شيء من قبل،

همس:

"لقد أخذها... من الجزيرة المحرّمة"

سأله أحد القادة، وقد بدأ صوته يرتعش:

"أهي... لينا؟"

أومأ رومان،

ثم وقف، ورمى الرسالة في النار، وقال:

"أخذها يوم كنتُ أستعد لحربٍ، وسأعيدها وأنا أحرق مملكته"

اقترب منه القائد الثاني، وتمتم:

"وماذا عن الطفل؟ هل... هل وُلد؟"

ابتسم رومان لأول مرة منذ سنين،

ابتسامة كمن رأى نوراً صغيراً يشقّ الظلمة، وقال:

"نعم، لقد وُلد،

وقد شعرتُ به الليلة،

حين ارتجف البحر، وسقطت النجوم الثلاث،

وُلِد وارثي"

رفع سيفه، وقال بصوتٍ دوّى في القاعة:

"أرسلوا النذير إلى مملكة محرز، قولوا له إن الغضب قادم،

وأخبروه إني لا أُفاوض على من أحب"

وفي الأفق، حيث الغيوم تدور فوق جيوش الجان،

كانت أول قطرة مطر تسقط من سماءٍ احمرّت من دون شمس.

لم تكن لينا تعرف كم مرّ من الوقت،

لكنها فقدت الإحساس بجسدها، ولم يبقَ فيها سوى صوت أنفاسها، يعلو، ثم يهبط، كأنها مخلوق يعيش داخل قوقعة.

في أعماق لم يهبط إليها ضوءٌ قط، حُبست لينا.

السجن لم يكن زنزانة؛ بل غرفة عضوية، تنبض من جدرانها أنفاس البحر،

كأنّها مخلوق حيّ يلتهم الوقت ببطء.

كل شيء هناك... يتحرك،

الجدران تتنفس، السقف يقطر ماءً مالحاً بطعم الدم،

والأرضية لزجة، كأنها جلد حوتٍ نافق.

كانت السلاسل التي تُقيد يديها شفّافة، لكنها تنبض،

وحينما تحاول الحركة، تشدّ على عظامها حتى تشعر أن مفاصلها تتمزق.

هناك...

لا نهار، لا ليل.

فقط ضوء أخضر خافت، يأتي من شقٍّ عالٍ في السقف، يشبه عيناً تتجسس، أو فماً يبتسم.

كل بضع ساعات أو أيام، تدخل كائنات لا شكل لها،

أحياناً تشبه الأعشاب، أحياناً تشبه الأطفال،

تتسلل داخل الزنزانة، تقترب من لينا، تشمّ جلدها، تضحك، ثم تختفي كأنها فقاعات سحرية.

لم تكن تأكل،

لكنها لا تموت.

لم تكن تنام،

لكنها ترى كوابيس.

كان محرز يُبقيها هناك متعمّداً.

ليس ليقتلها؛ بل ليُعيد تشكيلها.

لتذوب ذاكرتها في الماء، لتُمحى من العالم، وتُحوّل إلى ظلّ إضافي في مملكته.

وفي إحدى الليالي...

شعرت لينا بشيء يتغيّر.

جدران الزنزانة بدأت تهمس.

صوت أشبه بأنين، بلغة بحرية لا تفهمها، لكنها تعرفها.

قشعريرة اجتاحت جسدها،

ثم انقسم الجدار فجأة.

دخلت امرأة، أو ما يشبه امرأة.

كائنٌ مائي، طويل، وجهها مغطى بطبقة شفافة مثل قشرة قنديل بحر،

عيناها بيضاويتان، وفمها يتحرك من دون صوت.

لكن الكلمات وصلت إلى عقل لينا:

"حورية الزرقة، لا تموت،

اختاركِ البحر، وسيطالب بكِ يوماً ما"

ثم اختفت.

والجدار انغلق، كأن شيئاً لم يحدث.

لكن شيئاً ما استيقظ داخل لينا تلك الليلة،

لم تكن تلك دموعاً تنزل من عينيها؛ بل بقايا ضوء،

ضوءٌ قديم، لم يلمع منذ زمن،

لكنّه لم ينطفئ.

كانت لينا مستلقية، وشعرها مبلّل، وقدماها ترتجفان، وعيناها معلقتان بذلك الضوء الأخضر الذي لا يرحم،

ثم انخفض الضغط فجأة،

تحرّك الماء.

هواءٌ بارد اجتاح المكان، كأن الزنزانة نفسها تنحني أمام من اقترب.

فتح الجدار المائي ببطء، وظهر من خلاله...

محرز.

لم يكن يسير؛ بل ينساب.

عباءته الطويلة، منسوجة من حراشف ميّتة، ترفرف بلا ريح،

وجهه شاحب، كأنه نُحت من حجر الأعماق، وعيناه سوداوان، لا طرف فيهما، لا بياض، فقط ظلام البحر.

تقدّم حتى وقف أمامها، صوته خرج عميقاً، مشوّهاً كأن البحر نفسه يتكلم.

محرز:

"لم أظنكِ ضعيفة يا لينا،

ولا أظنكِ امرأة تُسلّم نفسها للهوى، فتخسر كل شيء"

رفعت لينا رأسها ببطء،

نظرت إليه، وعيناها احترقتا بالدموع.

لينا:

"لم أُسلّم نفسي! أنا هربت منكَ"

ضحك، لكنها ضحكة لا تحمل سوى السخرية.

محرز:

"هربتِ؟ وهل من هروب من البحر عاش؟

أنتِ لستِ سوى قطعة من اتفاق قديم، جزء من خطة أكبر من حبّك وغبائك"

زحفت إلى الحائط، استندت إليه، ثم همست بصوت مبحوح:

"كنتَ تعرف أنه سيغيّرني،

رومان لم يكن عدواً لي"

اقترب منها أكثر،

جلس على ركبتيه أمامها، كأنّه يريد سماع أنفاسها.

محرز:

"رومان كان سلاحاً،

لكنني أخطأت حين تركتكِ وحدكِ معه،

نسيت من أنتِ، من نحن، من أنا"

صمت، ثم انحنى إلى أذنها، وهمس:

"أتعلمين لماذا لم أقتلكِ بعد؟"

لم تُجب.

"لأنكِ ستشهدين النهاية"

رفعت عينيها إليه، تحدّته على الرغم من ضعفها.

لينا:

"النهاية لكَ، وليست لنا"

قام ببطء، وبدأ يبتعد.

لكن قبل أن يخرج، التفت، وقال:

"سيعود ابن الجان إلى البحر،

وعندها، ستحترقين مرتين،

مرّة حين تكتشفين من هو،

ومرّة حين يختار أن لا ينقذكِ"

ثم خرج.

وما إن أُغلق الجدار خلفه، حتى انفجرت لينا بالبكاء،

لكنها سرعان ما خبّأت وجهها بيدها،

ثم عضّت شفتيها، كأنها تحاول حبس شيء داخلها...

شيء لا تريده أن ينكسر.

مرت ساعات... أو أيام، لم تكن لينا تدري،

الوقت في أعماق البحر لا يُقاس بالشمس؛ بل بالذكريات،

وهي كلما أغمضت عينيها، رأته،

رومان،

ضحكته حين كان يحكي لها عن ألعابه في طفولته،

نظرته عندما قال: "أريدكِ، يا لينا، كلّ يوم"

ارتجف جسدها، وكأن ذراعيه ما زالتا حولها،

همست في نفسها:

"لو عاد بي الزمن، لما أخبرتها بالخطة أبداً"

نهضت ببطء،

كانت الجدران الرطبة تُصدر أصواتاً غريبة، وكأنها تهمس لها بكلمات غير مفهومة،

لكنها سمعت شيئاً جديداً هذه المرة.

لينا...

جفّ حلقها،

التفتت سريعاً،

الصوت لا يشبه صوت محرز، ولا يشبه أي شيء عرفته،

كان ناعماً، لكنه مرعب، كأنّه يخرج من حنجرة قديمة أُغلقت منذ قرون:

"لينا، لقد عُدنا"

ظهر من الظلام كيان ليس له شكل محدد، وجهه يتبدل، تارة يشبه

والدتها، وتارةً يشبه لاراسيا، وتارةً يشبهها هي.

تراجعت، قلبها ينبض بسرعة،

لينا: "من أنت؟"

اقترب منها، ولم تكن قدماه تلمسان الأرض،

عيناه مليئتان بألوانٍ لا يمكن وصفها،

الكيان:

"أنا من بقي حين خانكِ الجميع،

أنا من اختبأ حين نُفيتِ إلى هذه الأعماق،

أنا، جزءٌ منكِ، نسيتِه بين الحب والخوف"

وضعت لينا يدها على قلبها، كأنّ شيئاً فيها يُنتزع.

لينا:

"لم أعد أحتمل هذا المكان، هذا الأسر، هذه الأصوات"

ابتسم الكيان، وقال:

"لكنّكِ لستِ وحدكِ بعد الآن،

لقد سمعتكِ عندما رميتِ ابنكِ إلى القارب،

وسأساعدكِ؛ لأنني كنتُ هناك، حين همستِ: "عِش)"

دمعتاها لم تتحملا،

ركعت، ثم نظرت إلى الأعلى:

"هل ما زال حياً؟"

أجاب الكيان، بصوت خافت، لكنه قوي:

"إنه حيّ، وعلى اليابسة،

لكنه لا يعرفكِ بعد"

شهقت لينا، كل خلية من جسدها ارتعشت:

"أريد الخروج، أريد رؤيته، أريد أن أراه مرة واحدة"

اقترب الكيان، ومدّ يده:

"إذاً اختاري، لينا،

إما أن تكوني سجناً لهذا الندم،

وإما أن تكوني له نجمةً تهديه الطريق، حتى لو لم تصلي إليه"

أغلقت لينا عينيها، وتمتمت:

"دلّني، دلّني كيف أُخرج نفسي من جحيم محرز"

وفي اللحظة التالية، اختفى الكيان،

لكن الأرض اهتزت تحته،

والجدران بدأت تتشقق،

وصوت داخلي، ليس صوت أحد؛ بل صوتها هي، عاد إليها:

"استعدّي يا لينا، آن أوان العودة"

...وفجأة، سطع في الزنزانة ضوء أخضر شاحب، كأنّه أتى من باطن البحر لا من سطحه، ارتجّت الأرض من تحتها مجدداً، لكن هذه المرة لم يكن الاهتزاز من غضب؛ بل من كسر شيء قديم، شيء لم يُمسّ منذ عصور.

الجدران المرجانية بدأت تتشقّق، خطوط متوهجة من السحر تنتشر كعروق نور على سطح الزنزانة،

همست لينا، وقد شبّت واقفة على الرغم من الألم:

"ما هذا؟"

وفي الزاوية، انشقّ الحائط فجأة، وببطء خرجت ذراع حورية شاحبة، ترتجف كأنها تنبش من تحت ألف عام من الموت،

ثم تبعتها كتف، ثم وجه...

لم تكن حورية من هذا الزمان،

كانت إحدى الحارسات القديمات، من زمن ما قبل الممالك،

بشَعرٍ أبيض كالمرجان المتكسّر، وعيون فيها عتمة القاع،

قالت بصوتٍ مغمغم، وكأنّ صوتها طالع من البحر نفسه:

"نحن سمعناكِ يا لينا بنت آل رينيوس"

اتسعت عينا لينا:

"كيف؟ كيف وصلتِ إلي؟"

قالت الحارسة:

"صوت الظلال الذي استدعيتِه، فتح الباب الذي أغلقه محرز منذ قرون،

نحن آخر من بقي، نحرس ما لا يجب أن يُفتح،

لكنك الآن، خرّقتِ القفل"

ابتلعت لينا ريقها، قلبها ينبض كأنّه يريد كسر قفصه،

قالت، محاولة التماسك:

"هل... هل تساعدينني في الهروب؟"

اقتربت الحارسة، وضعت يدها الباردة على جبين لينا، وقالت:

"لن أساعدك في الهروب،

سأعيدكِ لمن تكونين حقاً"

وفجأة، انفجرت الزنزانة بنورٍ أخضر، كل شيء اهتز، الجدران تناثرت كأنّها رمل، والماء اقتحم الغرفة من كل الجهات.

وفي مركز هذا الانهيار، كانت لينا تحوم،

عينها متوهّجة، ووشم قديم بدأ يظهر على صدرها، قرب القلب مباشرة،

وشمٌ من سلالة الحوريات العليا، نُقش قبل أن تولد،

وصوت الحارسة يهمس في ذهنها:

"تذكّري من أنتِ؛ فأنتِ لستِ أسيرة؛ بل بداية الانهيار"

ثم تلاشى كل شيء.

في قصر محرز، على بعد آلاف الأميال في قاع البحر، كان الملك العجوز ينهض مذعوراً من عرشه المرصّع بالصدف، وقبل أن يتكلم، شقّت الأرض تحته نفسها، صرخة قديمة:

"الدم استيقظ"

فتح محرز عينيه، وهمس في رعب:

"لا، لينا... كُسِرت"

وهكذا...

كانت المياه تتحرّك،

والقاع يستعدّ لاستقبال من ظنّوا أنها لن تعود.

لينا، التي لم تكن فقط أماً أو عاشقة؛

بل

الخيط الأخير بين الغرق والقيامة.

في قاعة قصر اللآلئ الحية العميقة في أوراليم...

وقفت الملكة نايرا، سيدة الأعماق، وتاجها يضيء بنبض البحر،

وعيناها تظهران تاريخ آلاف السنين من الهيمنة البحرية،

أمامها ركعت إليترا، المبعوثة التي عادت لتوّها من لقاء رومان،

قالت المبعوثة، بثبات يخالطه أثر الصدمة:

"مولاتي، رومان ليس ملكاً كما نعرف،

هو شيء آخر،

حين تحدث، لم أسمع صوته فقط؛ بل شعرت به في عظامي،

جنوده لا يُطيعونه خوفاً؛ بل يتبعونه كما تتبع الكواكب جاذبية الشمس"

لم تُبدِ نايرا أي ذهول، فقط تقدّمت بخطوة، ونظرت نحو المسبح المقدّس الذي ينبض في وسط القاعة، حيث ترقص خيوط الضوء القادمة من فوق سطح البحر،

همست:

"قوة كهذه... لا تُركع، ولا تُكسر،

لكنها لا تُترك لتكبر وحدها"

ثم التفتت إلى مجلسها الملكي، وقالت:

"رومان يشعل حرباً كونية، للانتقام من محرز لقتله والدته جنية الظل النقي،

ولولا حكمته، لدكّ نصف الممالك التي تعالت على اسمه،

لكنه لم يفعل؛ لأنه ينتظر أن يفهمه أحد"

هتف أحد القادة من مجلسها:

"أتقصدين أننا سنحني الرأس له؟ نحن، أوراليم؟"

نظرت إليه نايرا نظرة جعلته يصمت من دون كلمة،

ثم قالت:

"نحن لا ننحني،

لكننا لا نغرق أنفسنا في عاصفة لم نحضرها،

ولا ندير ظهورنا لملكٍ يُعيد كتابة القوانين القديمة، خصوصاً أننا اختفينا سنوات"

وقفت بشموخ، وصوتها يعلو بثقة ملكة لا تعرف الهزيمة:

"أوراليم ستعرض على رومان تحالفاً من موقع القوّة،

لا لأننا نخاف؛ بل لأننا نختار زمان الحرب ومكانها"

صمت القاعة.

ثم قالت:

"إن توحّد المدّ والجزر،

سيجثو أمامنا حتى الزمن نفسه"

ثم التفتت إلى المبعوثة، وقالت:

"أعدّي الرسالة،

وليكن أول سطر فيها:

"إلى رومان آل زايريس،

من ملكة الأعماق التي لا تخشى ظلك؛

بل ترى فيه مرآتها)"

جلس الملك محرز على عرشه،

ويداه مقبوضتان على طرفي العرش، وصدره يعلو ويهبط من الغضب والخوف.

وقف أمامه كاهل،

وفي يده لفافة مشتعلة بنارٍ لا تلسع؛ بل تُهمس.

قال محرز، وهو يحدّق في الحرف الأخير من رسالة رومان:

"قال إنه سيحرق مملكتي، هو لا يعلم ماذا يعني أن يتحدّاني"

ثم نظر إلى الكاهل بعينين تنبضان بالحذر:

"أخبرني، هل يمكن لرومان أن يخترق أعماقي؟

حتى بعد كل ما غيّرته؟ بعد الطلسم الرابع؟"

ابتسم كاهل، بهدوءٍ لا يليق بساحة حرب، وقال:

"رومان لا يخترق الممالك بالأسلحة فقط؛ بل بالقلوب،

ومن يُحب، يستطيع أن يهدم المدن، ليس بالجنود؛ بل بالاسم الذي ينطقه"

ضرب محرز بقبضته العرش:

"لكننا نملك جيوشاً لم يُرَ مثلها منذ عهد الغرقى!

جن من اللهب، ومن الطين، ومن أصوات العظام!

سنُريه من هو حاكم الأعماق"

رفع كاهل يده، وقال بصوتٍ خفيض، أشبه بتعاويذ:

"اجمعهم، كل أنواع الجنّ،

الفراغيون من ظلال الفراغ،

الساكنون في مرايا الدم،

الذين يُنشدون في ليل الصمت"

ثم همس:

"لكن لا تنسَ، حتى وإن جمعت الجيوش،

رومان لا يحارب فقط؛ بل يصرخ باسمها،

وهذا ما لا تملكه أنت"

صمت محرز، وشفتاه ترتجفان قليلاً، كأن الشرّ نفسه تردّد،

ثم لوّح بيده، وأُطلقت الأوامر في الأعماق:

"احشدوا الجن، كل أنواعهم،

استعدوا لنهاية البحر، أو بدايته"

العودة إلى رومان

كان الليل هادئاً، لكن البحر يتنهد،

جلس رومان وحده، والرياح تحرّك خصلات شعره، تهمس بالأخبار القديمة،

في يده، قشرة محارة بيضاء،

هي كل ما تبقى من الجزيرة المحرّمة،

همس في نفسه:

"هل كانت تبتسم لي أم تودّعني؟

لينا، حين همستِ باسمي للمرة الأخيرة،

هل كنتِ تخافين أن أسمعه؟ أم كنتِ تتمنين أن لا أنساه؟"

أغمض عينيه، ومرّت صور وجهها في ذاكرته، وجهها حين كانت تضحك على الرغم من القيود،

حين كانت تكتب على الرمل أسماءً من دون أن تقرأها،

حين قالت له في إحدى الليالي:

"لو انتهى العالم غداً، دعني أحبك الليلة"

شهق بصوتٍ خافت، ثم رفع نظره نحو البحر:

"لأجلكِ...

سأدخل مملكة محرز،

وسأخرج منها

بكِ، أو بذكراكِ،

لكنني لن أتركك بين الظلال"

غفى رومان وهو يفكر بحبيبته المحبوسة،

عندما استيقظ،

وقف رومان على حافة الجرف، والبحرُ من تحته يعجّ بصوت لا يُشبه الأمواج؛ بل كأنّ شيئاً في الأعماق ينتظر الأمر،

وراءه، صفوفٌ لا تنتهي من الجنود.

صرخ ثايون، أحد قادة الجيوش:

"نحن على استعداد! الممرات السرية نحو مملكة محرز فُتحت!

قل الكلمة، وسنبدأ الحرب"

لم يردّ رومان، عيناه تلمعان بلونٍ غامق كأنهما تصوران البحر والدم معاً،

ثم قال أخيراً، بصوتٍ كالسيف حين يُسحب من غمده:

"اليوم... نهجم"

ارتفعت صيحات الجنود، وبدأت السفن تتحرّك، لكن السماء تغيّرت فجأة،

انفلق الضباب كأنه يُمزّق، وانشقت السماء فوق البحر،

لتخرج منه سفينة طائرة، تُحلق بلا أشرعة، تحفّها كائنات نورانية كأنها من طين الكواكب،

وعلى حافتها، وقفت الملكة نايرا،

كانت تلبس درعاً فضياً ينبض كلّما رفعت يدها،

وحولها ثلاث كتائب من جنّ أوراليم لا يحملون سيوفاً؛ بل رموزاً تتغيّر أشكالها، وتتحوّل إلى أسلحة حين يُفكرون في ذلك،

قالت بصوتٍ لم يكن صوتاً؛ بل موجة من الهيبة اجتاحت الجنود:

"رومان آل زايريس،

قلتَ إنك ستدخل مملكة محرز وحدك،

لكن البحر لا يُخترق إلا بأمرٍ منّا جميعنا"

تقدمت خطوة إلى حافة سفينتها، ورفعت راية بلون الزمرد:

"أورواليم... تنضم إليك،

ليس حباً فيك؛ بل إيماناً بالذي وُلد منكما"

نظر رومان إليها، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة:

"أنتِ لا تؤمنين بالبدايات، نايرا،

لكن يبدو أنكِ بدأتِ تؤمنين بالنهايات"

قالت ببرودٍ مهيب:

"بل آمنت بمن يملك الشجاعة ليُشعل النهاية"

ثم انضمت سفن أورواليم إلى أسطول رومان،

وفي لمح البصر، تضاعف حجم الجيش،

وامتلأ البحر بجيوش من خمس ممالك،

جن يحملون المطر، وآخرون يركبون الموج،

ومن في مقدمتهم، رجلٌ يرتدي سواد البحر، ويحمل سيفاً يشقّ المدى.

همس أحد الجنود الشبان، بعينين مرتجفتين:

"هل هذا... جيشٌ حيّ؟ أم حلمٌ من ملاحم الظلال؟"

ردّ عليه القائد ثايون:

"بل هذا... جيش رومان"

وقف رومان ونايرا جنباً إلى جنب،

وخلفهما عشرات القادة من مختلف العشائر.

قال رومان وهو ينظر نحو الأفق:

"مملكة محرز ستسمع صوتنا قبل أن ترانا"

ردّت نايرا:

"بل ستشعر بنا... في قاع قلبها"

صرخ رومان بأعلى صوته:

"إلى البحر!

إلى العُمق الذي ظنّ أنه لن يُغزَى أبداً!

لأجل لينا،

لأجل والدتي،

لأجل الوارث الذي لم يولد ليختبئ،

افتحوا الطريق"

وبدأت السفن تتحرك، والماء من حولهم ينقسم كأنّ البحر نفسه

ينحني لمرورهم،

والرياح غيّرت اتجاهها،

كانوا قادمين.

قلب مملكة محرز

الهواء هناك لا يُتنفس؛ بل يُؤمر،

في وسط القاعة، كان الملك محرز جالساً على عرشه،

عيناه كأنهما بركتان من شمّ، لا ينعكس فيهما ضوء؛ بل يبتلعانه،

إلى جانبه، وقف الكاهن الأعظم كاهل، محاطاً بسبعة أختام سحرية قديمة، تشتعل حوله كلما اقترب التهديد من المملكة،

وفجأة، ارتجف ختم أمواج النسيان،

ثم تبعه ختم الضوء الغريب،

واشتعل الختم الأخير، دم أول الملوك.

رفع كاهل رأسه، وعيناه تضيقان حتى صارتا نقطتين متوهجتين:

"اقتربوا، جيشهم يشق البحر كما لم يُشق منذ الخلق"

زمجر محرز بصوتٍ ثقيل كأنه يصدر من قاع الأرض:

"من؟ من يجرؤ على هذا؟"

أجاب كاهل، وهو يفتح كتاباً من جلدٍ لا يُعرف مصدره:

"رومان ليس وحده،

تحالف مع نايرا،

جيشهم لا يُعدّ، ولا يُشبه جيوشنا"

ضرب محرز ذراع العرش، فاهتزت الجدران:

"تلك الأفعى التي حسبوها خرافة خرجت من ظلال النسيان، لثقاتل من جديد"

أومأ كاهل ببطء، ثم أضاف:

"لقد رأيته،

رومان لم يَعُد كما كان،

إنه يملك الآن قوة تُجبِر العقول على السجود،

ويكاد يُعيد البحر إلى طاعته الأولى"

صمتٌ طويل ساد في القاعة،

ثم قال محرز ببطء:

"إذا كان قادماً، فلن يجدني نائماً"

نهض من عرشه، ورفع يده نحو السماء، ثم غرسها في الهواء،

فانشقّت الأرض تحت القاعة، وخرج منها بئر أزرق داكن، يُسمّى في الأساطير "فم الليل"

قال كاهل، وقد تغير صوته فجأة:

"أأنت متيقن؟ لم يُكسر الختم الأخير منذ آلاف السنين، حتى

أسلافك لم يجرؤوا"

أجاب محرز وهو يمد يده داخل البئر:

"بل أنا الذي صنعته،

وحان الوقت أن أحرّره"

وفي اللحظة التالية، خرج من البئر كائنٌ بلا ملامح، يشبه البحر إذا تجسّد،

يتنفس موتاً، ويزحف بلا أطراف، لكنه إن سار، خرس الهواء من حوله.

قال محرز:

"أيقظوا كل ما نُسي،

جهّزوا سلالة الدم الأسود،

افتحوا الممرات التي لا تعود؛

لأن من يأتي، لن أقاتله فقط؛

بل سأعلّمه ما معنى أن يُولد من البحر، ويُدفن فيه"

ضحك كاهل، ضحكة متشققة:

"رائع، رائع!

ليأتِ رومان،

ولنرَ إن كان الحب سينقذه من ما سنطلقه عليه"

في باحة القلعة، تجمّع آلاف الجنود من مملكة محرز، زغاريد الحرب تتردد بين الجدران الحجرية، وألوان الدروع تلمع تحت ضوء القمر الباهت،

وقف قائد الحرس -كاهل- على منصة مرتفعة، نظراته حادة، صوته يعلو فوق الضجيج:

"أيها الجنود! اليوم لا نحارب فقط مملكة جارٍ عدونا؛ بل نواجه ظلاً قديماً ينبعث من الأعماق!"

تقدم كاهل قائلاً:

"هم يأتون بسلاح لم نره من قبل، ولكننا لسنا أقلّ قوة! دماؤنا تتدفق من جذور البحر نفسه، نحن مملكة المحاربين، لن نخضع، ولا ننتصر إلا إذا كان النصر لنا وحدنا"

صاح أحد الجنود من الحشد:

"هل ننتظر أوامر الملك؟"

ابتسم كاهل بحزم:

"لا، سنكون نحن أول من يضرب، الحذر، والقوة، والشجاعة، هذه مفاتيح النصر"

في تلك اللحظة، وصل رسول يلهث من التعب، وأعلن:

"الملك محرز يجمع كل القبائل البحرية استعداداً للمعركة القادمة، الخطط تتشكل، والتكتلات ستتوحّد!"

تبادل الجنود نظراتهم، وما كان منهم إلا أن رفعوا أسلحتهم عالياً،

هتافات تعلو:

"لمحرز! لمملكتنا! للحرب!"

الهدير من حولهم كان مختلفاً، لم يكن صوت الريح أو تحرك الأمواج؛ بل كان شيئاً يشبه دقات الطبول القديمة، تأتي من الأعماق، وكأن البحر نفسه بدأ ينذر بما سيأتي.

رومان وقف عند مقدمة الجيش، رداؤه الطويل يتمايل مع الرياح البحرية، وعيناه لا تفارقان الأفق.

في يده، حجر أبيض بحجم راحة اليد، لكن لم يكن عادياً، الحجر كان يصدر ضوءاً ناعماً، حياً، يتغيّر نبضه مع مشاعره.

اقترب منه القائد ثايون، وهمس بصوتٍ منخفض:

"هل أنت متيقن؟ استخدام الحجر الآن قد يفتح ما لا نقدر على إغلاقه"

أجابه رومان من دون أن يلتفت:

"الباب الرابع قد اهتز، وثمّة يدٌ تحاول فتحه من الداخل، إن لم نُسبقهم، سيكون البحر أول ما يُبتلع"

سكت لحظة، ثم قال بنبرة متهدّجة:

"ولينا، أشعر بها أقرب مما كنت أظن"

ضغط الحجر، فتوهّج بشدة حتى انبعث من داخله خيطٌ من الضوء، اخترق الغيوم فوقهم، واتجه نحو جهةٍ واحدة.

مملكة محرز.

أدار رومان وجهه إلى جيشه خلفه، وقال بصوتٍ جهوري:

"الحجر لا يكذب، من في الأعماق يعرف أن الحق قد استيقظ، اليوم، لن ندخل الحرب؛ بل سنُخرِج الحقيقة من فمها"

ثم رفع الحجر عالياً، وصرخ:

"إلى مملكة محرز! إلى من اختطف حبيبتي، وقتل والدتي، لن ندخل غزاة؛ بل قدراً"

فاندفعت الجيوش خلفه، تحمل رايات أوراليم والجان المتمرّدين، والبحر بدا كأنه ينقسم طواعية أمامهم.

وفي أعماق الأعماق، شيء ما بدأ يرتجف، كأنه خائف من قدوم من يحمل الحجر.

***

توقّفت السفن عند حافة هائلة من الماء، جدارٌ بحريّ لا يتحرّك، يرتفع كحاجز يفصل بين عالمين،

ليس ماءً عادياً، كان أشبه بـ"مرآة حيّة"، كل من ينظر فيه يرى ماضيه، أو مستقبله، أو كابوسه.

رومان وقف في مقدمة أسطوله، كان الحجر النقي بين يديه يصدر أزيزاً غامضاً، ينبض كقلبٍ بدأ يستعد للانفجار.

اقتربت نايرا، ملكة أوراليم، ممتطية وحشاً مائياً يلمع كأنه مصنوع من زجاج القمر، وقالت بصوتها الرزين:

"هذه حدود مملكة محرز، الجدار السماوي، لا أحد يعبر من دون إذن، أو دم ملكي"

رومان ابتسم ببرود، وقال:

"الدم موجود، والإذن، سآخذه بنفسي"

ثم رفع الحجر عالياً، ونطق بكلمات بلغة منسية:

"نو فارِن، زال تورِن، كا آل زايريس،

باسم من وُلد من الموج، افتحوا الباب، فقد عاد من لم يُدفن"

اهتزت المياه،

ظهر صدع في الجدار، وكأن البحر نفسه خاف أن يرفض، انقسم الحاجز إلى ممرّ، كشف عن طريقٍ مضيء ينزل إلى قاعٍ لا يُرى له قرار،

صرخ الجنرال ثايون بحماس:

"لقد فُتح! الطريق إلى قلب العدو بين أيدينا"

لكن نايرا رفعت يدها بحذر، وقالت:

"ليس طريقاً؛ بل فخاً مُعقّداً، كل خطوة داخله تُحسب بالعقود"

رومان التفت إليها، وقال بهدوء مميت:

"إذاً، لن نخطيه خطوة خطوة؛ بل سنكسر الزمن معه"

ثم التفت إلى جيشه، صوته مدوٍّ:

"من منكم عاش كفاية في المنفى؟

من منكم ينتظر أن يُقال عنه يوماً، إنه كان من الجان؟

من منكم يريد أن يُكتب اسمه في قلب البحر، لا على شواطئ الذل؟"

فصرخ الآلاف خلفه:

"نحن معك، يا من أوقظنا"

وهكذا...

دخل رومان،

دخلت نايرا،

ودخل جيشٌ، لو رآه البحر نفسه، لابتلع نفسه خجلاً.

أما في عمق المملكة، خلف الأبواب المغلقة، فقد وقف الملك محرز على شرفته، يراقب التمزق الذي حدث في حدود مملكته،

إلى جانبه، كان العتيق كاهِل، وعيناه شبه مغلقتين، يهمس:

"لقد أتى من يُقال إن صوته يكسر العهد القديم"

ردّ محرز بصوت غليظ:

"فليأتِ، نحن من صهرنا الظلام، فليجرّب النور أن يطفئنا"

ثم أشار إلى حرّاسه، وقال:

"افتحوا البوابة الأخيرة، أطلقوا السبعة"

جلست لينا وحدها، ويداها فارغتان، وذراعاها ملتفّتان حول صدرها، كمن تحاول أن تتذكّر شعور الطفل بين يديها،

كانت تحاول...

أن تتذكّر دفء آسر،

أن تحفظ آخر لمسة له قبل أن تُفلت القارب، وتدفعه في عباب البحر،

لكنه لم يكن معها،

والفراغ حولها كان ينهشها كل لحظة،

لكن فجأة...

مزّت في قلبها رعشة.

لم تكن باردة

كانت دافئة، متوهجة، كأن شمعة اشتعلت في صدرها،

وضعت يدها على قلبها، وارتجفت،

شيءٌ ما... في الخارج... يقترب،

كأن الموجة التي فارقتها منذ زمنٍ بعيد... عادت تزأر.

أغمضت عينيها، لكن الدموع هربت قبل الجفن،

رأت ظلالاً تمشي فوق البحر،

ورأت حجراً في يد من تحب،

يشعُّ بلونٍ لم تعرفه من قبل، لكنه يوقظ شيئاً قديماً بداخلها.

رأت رومان،

لا أمامها؛ بل في داخلها،

همست:

"أنت تشعر بي... حتى وأنا هنا"

ارتجّت جدران الكهف للحظة،

كأن البحر نفسه خفق مع نبضها،

ثم ابتسمت، على الرغم من الضعف، وقالت:

"أنا لست بخير يا رومان، ولكنك قريب،

وأنا... بانتظارك"

وقف رومان أمام بوابة العرش،

ثم نظر إلى السماء المقلوبة فوقهم البحر نفسه،

وقال بصوتٍ عميق، كأنّه يوقظ شيئاً أقدم من مملكة محرز:

"جئتُ بلا دعوة،

لكن بصوتٍ لن تنسوه"

ومع كل كلمة، كانت الجدران تهتز.

فجأة، صدح صوت من الأعماق، لم يكن من الحرس، ولا من محرز نفسه؛

بل من كيانٍ كان ينام خلف العرش.

الظل الأزرق

قال:

"من يدخل إلى مملكة محرز... يُصبح جزءاً منها"

لكن رومان لم يتوقف،

فتح راحة يده، ورفع الحجر النقي،

فأضاء المكان بلونٍ لم يعرفه البحر من قبل: البياض المطلق،

احترقت نقوش الجدران،

وتراجعت الطلاسم القديمة من فوق البوابات،

ثم فُتحت البوابة،

ومن خلفها...

خرج السبعة،

لكنهم لم يهاجموا فوراً،

وقفوا، يصطفّون أمام رومان، كأنهم ينتظرون أمراً،

ثم، وأخيراً، خرج محرز بنفسه.

كان يسير فوق المياه، لا فيها، إنه كيانه، ليس محرز نفسه،

وجهه لم يتغير، لكن عينيه كانتا أقدم من كل شيء،

قال لرومان:

"أدخلتَ نورك إلى مملكتي،

فلتعلم... أنك لن تخرج منها كما كنت"

اقترب رومان خطوة، وحدّق فيه، وقال:

"ولتعلم... أنك لن تحكمها كما كنت"

وقف السبعة في صفٍّ واحد، متراصين كجدارٍ أسود،

كلّ منهم مختلف.

واحدٌ له رأس ثعبان من زجاج،

وآخر يتنفس دخاناً،

وثالثٌ لا تراه إلا إذا أغمضت عينيك،

هم ليسوا جناً فقط،

إنهم تجسيدٌ للخطايا التي بنت هذه المملكة،

مخلوقات خُلقت من الكره، من النسيان، من النفي.

رومان لم ينتظر،

صرخ بأعلى صوته:

"هيا،

ارقصوا على إيقاع الغضب"

فتقدّمت فرق رومان أولاً.

جنود أوراليم انقسموا إلى جناحين،

يحملون رايات من ضوءٍ ونار،

أسلحتهم تشتعل تحت الماء كأنها لا تخضع لقانون،

لكن... حين صدموا السبعة،

تغيّر كل شيء،

لم تكن معركة، كانت طرداً للواقع.

أحد السبعة، يُدعى "ماركا الفظّ"،

مدّ يده فاهتزّ البحر كله،

سقط 10 من جيش رومان، واحترقت الأعلام، وذابت دروع بعض الجان.

الآخر، الملقب بـ"شاحب اللحن"،

أطلق نغمةً، مجرد نغمة،

فوقعت مجموعة من الجن أرضاً، يصرخون، كأنهم يسمعون موتهم يُتلى،

لكن رومان لم يتراجع،

رفع الحجر النقيّ،

ثم غرسه في الأرض، وصرخ:

"إلى الأمام، لا تعبدوا الخوف؛ بل اجعلوه يعبدكم"

فأضاءت الأرض تحت أقدامهم،

وانشقّ البحر من تحت مملكة محرز نفسها،

خرجت قوات الحرس الغارق،

أولئك الجن المنسيّون، الذين ماتوا من دون أن يُدفنوا،

وها هم يعودون، لكن ليس كأحياء، ولا كأموات.

بين صليل الأسلحة ونحيب الأرواح، بدأ الاشتباك الحقيقي،

ركض ثايون، جنرال رومان، نحو أحد السبعة، وصرخ:

"دعوني أختبر خلودكم"

فاصطدم بدرعه، وتطاير الشرر كأن الفجر يصطدم بالليل.

في الخلف، كان قادة أوراليم يرفعون الأختام،

يفتحون بوابات قديمة من المرايا،

يستدعون قِطعاً من أساطير نُسيت،

ورومان...؟

كان في قلب المعركة،

عيناه تلاحقان كل حركة،

لا يقاتل فقط بسيفه؛ بل بصوته، وبحجَره، وبغضبه.

لكن... على الرغم من كل هذا،

السبعة لا يسقطون؛

بل كلما سقط أحد منهم، يعاود الوقوف،

كأنّ شيئاً خلفهم يُعيدهم كل مرة.

اقترب أحد قادة الجان من رومان، ونزف الدم من فمه، وهمس:

"سيدي، إنهم لا يموتون!"

نظر إليه رومان، وقال:

"لأنهم لا يعيشون،

ولن تُغلق هذه المعركة، حتى نصل إلى مَن جعلهم هكذا"

رفع سيفه، وأشار نحو القصر الذي خلف السبعة:

"محرز... هو بوّابة كل هذا"

وفي داخل الزنزانة،

حيث تُحبس لينا،

شعرت به،

شعرت بدويّ السيف الذي تعرفه،

صدى اسمه في قلوب الجان،

والضوء الذي حاولت نسيانه،

ارتجف الجدار،

واقترب الأمل.

***

ارتفعت أصوات الاشتباك الضاري بين قوات أوراليم وجيوش رومان،

ضد سبعةٍ لا يُهزمون،

وضد كائنات محرز: اليَزَم، والحوريات، وجيوش جان البحار.

السماء المائية اهتزت،

والشعاب المرجانية انفجرت كأنها قنابل،

وكل موجةٍ كانت تحمل صراخاً أو رايةً محروقة.

وسط هذا الجحيم،

كان رومان يتقدّم بثبات،

عيناه تحرقان ما أمامه،

وفي يده سيفه المشع،

وفي الأخرى الحجر النقي.

التفت نحو قائده الوفي ثايون، وقال بصوتٍ عميقٍ اخترق الجلبة:

"ثايون"

اقترب القائد، مثشحاً بالدم والملح، وقال:

"أمرك، سيّدي"

فقال رومان، من دون أن يوقف سيره:

"ابحث عن لينا،

افتح كل قبو، كل جدار، كل زنزانة،

هي هنا، وأشعر بها"

حدّق فيه ثايون لحظة، ثم ضرب صدره بقبضته، وقال:

"سأعيدها، أو لن أعود"

وانطلق مع كتيبة خفيفة من الجان، يتوغّلون في سراديب المملكة،

بين الظلال التى لا تُشبه البشر،

بحثاً عن الأميرة التي أسرها البحر.

أما رومان...

فشق طريقه نحو قلب المملكة،

هناك، حيث يقبع العرش الغارق،

والممرات تُنيرها ألسنة من العظام الزرقاء،

وجد الباب الحجريّ، محفور عليه رمز عائلة محرز المالكة،

دفعه، ودخل،

في الداخل، وقف محرز بثبات، عيناه تلمعان بقسوة لا تُخفى، وإلى جانبه كاهل، الذي كان يتحكم بالسبع بحنكة وسلاسة.

التقى نظر رومان ومحرز، وتبادلا كلمات حادة مليئة بالغضب والتهديد، محرز بابتسامة باردة:

"أتيت تبحث عن لينا؟ هذا خطأ كبير يابن زايريس،

سأقتلك هنا، وأحنط رأسك لأعرضه في قصر مملكتي، ليعلم الجميع أن لا أحد يتحداني"

رومان بحزم لا يلين:

"لن تنال مني، ولن تبقى لينا في قبضتك، والدي سيعلم ما فعلت"

تدخل كاهل بهدوء:

"دعنا نُريهم قوة السبعة، وليكن هذا الدرس الأخير لهم"

وفجأة، اندلعت المعركة.

رومان ومحرز تصادما في اشتباك عنيف، أسلحتهما تتلاقى في وميض النار تحت الماء، بينما ثايون يقود كتيبته ليبحثوا عن لينا داخل الممرات الغارقة.

لكن لينا، كانت هناك، تسمع أصوات القتال والتهديدات، تشعر بقلبها ينبض بالخوف والأمل في آن واحد،

همست في نفسها:

"رومان، يجب أن تنجو، يجب أن تجدني"

كان ثايون يتقدّم بخطى حذرة، يمرّ بكهف تلو الآخر، وصوت الحرب يرنّ بعيداً كصرخات تائهة في أعماق لا تُقاس، خلفه أفراد كتيبته يلتقطون أنفاسهم بصعوبة، وكلّهم يعلمون المهمة:

"ابحثوا عن لينا"

وفجأة، توقّف ثايون،

رأى ضوءاً خافتاً يتسرّب من شق في أحد الكهوف الجانبية، كأنّ المكان يلفظه ببطء إلى العالم.

دخل، وما إن رفع الشعلة حتى سطع ضوؤها على وجهٍ شاحب، وعيونٍ امتلأت بالدهشة،

كانت هي،

كانت لينا، تجلس على الأرض، ترتجف، لكنها حيّة،

رفعت رأسها ببطء، وعندما رأت درع الجان، شهقت، وكادت تبكي:

"أنتم... من جيش رومان؟"

ابتسم ثايون، وركع أمامها قائلاً:

"أجل، جئنا لنحرّركِ، سمو الأميرة، أخيراً وجدناك"

وقفت لينا بتعب، اقتربت منه خطوة، وقالت بصوت مختنق:

"رومان بخير؟ أين هو؟"

قال بثبات:

"هو في قلب أرض المعركة، أتيت لأخرجك من هنا، لنعود بك إلى مملكة رومان، إلى برّ الأمان"

لكن لينا أزاحت يده، وقالت، والدموع في عينيها:

"لا، لن أهرب وهو هناك، يُقاتل وحده، أنا زوجته، أنا حبيبته، ولن أكون ظلاً خائفاً في المملكة انتظر، سأحارب معه، كتفاً إلى كتف، م...

معلما وعدت قلبي"

كاد ثايون يردّ، لكن فجأة، صرخت لينا بصوت حاد، ووقعت على الأرض، تمسك رأسها كأنّ ناراً اشتعلت داخله،

هرع إليها ثايون، يهمس بقلق: "لينا، ماذا يحدث؟"

فتحت عينيها بصعوبة، وقالت:

"هو... رومان... جُرح، شعرت به... خذه الأيسر... سيف غدرا"

شهق ثايون، وعيناه تتوسعان:

"لقد... اتصلت أرواحكما"

رفعت لينا رأسها، ووجهها مشرق بالألم والعزم:

"لن أنتظر، دلّني عليه، ثايون، الآن"

كانت المعركة بين رومان ومحرز تشتعل كغضب البحار.

سيف رومان اخترق الهواء، اصطدم بدرع محرز، والشرر تناثر حولهما، والنار الزرقاء ارتجّت على الأرض كلما التقى الحديد الحديد، كان محرز يُقاتل بلا رحمة، عيناه تتوهجان بحقدٍ قديم، وقلبه مُثقل بالظلال.

لكن ما لم يتوقّعه رومان،

هو الطعنة،

ما

من الخلف، تسلّل كاهل، عيناه تبرقان بالولاء الأعمى، وسكينه

يحمل سمّ الخيانة،

غرزه في خدّ رومان الأيسر، عميقاً،

شهق رومان، وتراجع خطوة، والدم يتساقط كأن البحر نفسه ينزف منه، التفت ببطء، وعيناه تشتعلان، ليرى كاهل يبتسم بخضوع:

"أنت لست قدري، محرز هو..."

لكن قبل أن يضربه مرة أخرى، دوّى صوت صليل خلف الجدار.

انكسر الباب، واقتحم ثايون القاعة كعاصفة،

وراءه لينا، عيناها تبرقان، وشَعرها مبتل، وقلبها يحترق،

تبعه الجن من الكتيبة السوداء، يندفعون كسيلٍ قاتل، والسيوف تُضاء بلعنات الحرب.

صرخ ثايون:

"كاهل، خادم الظل، انتهى وقتك!"

وانقضّ عليه.

دار القتال ثواني فقط، لكن ثايون لم يُمهله، غرس سيفه في صدر كاهل، واخترقه من الظهر،

شهق كاهل، وسقط أرضاً، يقضي أنفاسه الأخيرة،

وفي اللحظة نفسها، ذاب السبعة،

كأنّ وجودهم كان مربوطاً بكاهل، وكأنهم لُعنوا بأن يُمحوا مع موته، تلاشت أجسادهم، كأنّهم حلم سيئ انسحب من الواقع.

وفي الخارج، رأت الملكة نايرا من بعيد ما حدث، وصرخت لقواتها:

"السبعة سقطوا! قاتلوا! النصر قريب!"

أما محرز، فوقف في منتصف القاعة، ينظر إلى المشهد، ثم ابتسم، واختفى، كأنه لم يكن يوماً هناك، لا أثر، لا صوت، لا ظل.

ركضت لينا نحو رومان، عيناها تغمرهما الدموع، قلبها يكاد يخرج من صدرها، فلما رأته ينزف، صرخت:

"رومان...!"

رفع عينيه، وبمجرد أن رآها، أسقط سيفه، وفتح ذراعيه،

ارتمت في حضنه، وضمّها بقوّة، كأن العالم كله توقف في تلك اللحظة، كل شيء حولهما اختفى، ولم يبقَ سوى نبض قلبيهما.

قالت وهي تبكي على صدره:

"ظننتُ أنني لن أراك مجدداً، ظننتُ أنهم أخذوك مني"

مسح دموعها بإبهامه، على الرغم من جرحه، وقال بصوتٍ خافت، لكنه ثابت:

"أنتِ روحي، يا لينا، لو فني هذا العالم، وبقيتِ، لبقيتُ حيّاً"

قالت، ووجهها غارق بين راحتيه:

"أقسمتُ أن أكون إلى جانبك، في الحياة والموت، وسأقاتل، سأقاتل؛ حتى لا يلمسك ظلامٌ بعد الآن"

ابتسم، على الرغم من الألم، وقال:

"بكِ انتصرنا، وبكِ سنبني عالماً لا يحتاج إلى حرب"

لكن قبل أن تكتمل لحظتهما، شهق ثايون خلفهما،

كان واقفاً يتكئ إلى الحائط، وسيفه ملطّخ بالدماء، وجُرح غائر يقطع صدره،

قال وهو يبتسم بتعب:

"وجدنا السحرة، قتلناهم جميعهم، لكنهم لم يغادروا من دون أن يتركوا لي هدية"

ركض نحوه الجن ليسندوه، بينما رومان اقترب، وقال بثقل:

"أنت... مديننا كلنا بهذا النصر، ثايون"

رفع ثايون رأسه، وقال وهو يغمض عينيه:

"لم أفعلها لأجل مملكة؛ بل لأجل ملك، صدّق أن الخير لم يمت"

ثم فقد وعيه،

وبقي رومان يحتضن لينا، بينما حولهما، الجيوش تُطهّر أطلال مملكة محرز، والبحر... أخيراً، بدأ يهدأ.

***

في ساحة المعركة، حيث امتزج الملح بالدم، والسماء أطفأت صراخها، وقفت الملكة نايرا على حافة مرتفعٍ من صخور الشعب المرجانية السوداء، كانت أنفاسها سريعة، وسيفها ما زال يقطر من دم آخر من تبقى من حوريات محرز.

حولها، رفرفت رايات أوراليم العتيقة، بعد أن اختفت مئة عام، عادت اليوم تُعلن انتصارها من قلب الجحيم.

تقدّم منها أحد قادتها، وانحنى، وقال:

"مولاتي، لا أحد من جنود محرز باقٍ، الساحرات سقطن، والحوريات تبعثرت، واليَزَمُ طَفا على سطح البحر، لقد انتصرنا"

سكتت نايرا لحظة، ثم أغمضت عينيها، وشهقت شهقة خفيفة كأنها أفرغت مئة عام من الألم والخسارة في تلك اللحظة.

همست:

"إذاً، تحققت نبوءة البحر"

ثم فتحت عينيها، ونظرت نحو الأفق، حيث الدخان ما زال يتصاعد من أطلال مملكة محرز، وقالت بصوت يسمعه من بقي حيّاً:

"من قال إن أوراليم انتهت، لم يعرف من نحن"

ثم رفعت سيفها نحو السماء، وقالت:

"العار أُزيل،

والعدو اندحر،

وليشهد البحر أن أبناءه عادوا أسياداً"

صفّق الجن من حولها، وهتف الجنود، وعادت أوراليم تُدوّي من جديد، لا كظلال من الماضي؛ بل كقوةٍ تحرّرت من تحت الغرق، لتصنع فجراً جديداً.

خرج رومان من بوابة القصر، يخطو بخطى ثابتة، ودمه لم يجف بعد على خده، لكنّ عينيه كانتا مشعّتين بقوة لم تُرَ فيه منذ سنين.

إلى جواره... كانت لينا،

وثوبها ممزق من الأسر، لكن وقفتها كانت وقفة ملكة، يدها تمسك بيده، كأنها تتمسك بالحياة نفسها، وهو، لم يتركها لحظة.

وما إن رآهم الجن على ضوء النهار الأول الذي تسلل بعد نهاية الحرب، حتى دوّى التصفيق،

تصفيق لم يكن فقط لنصر؛ بل لعودتهم،

صفّق الجن من أوراليم، وصفّق جنود آل زايريس، ومن نجا من جيوشهم صرخ باسم سيده،

وبين ضجيج التصفيق، رفع رومان يده، فسكت الجميع.

نظر إليهم، ثم نظر إلى لينا، وضغط يدها برفق، ثم قال بصوته العميق:

"لقد عدنا، ومعنا من نجونا لأجلهم"

ثم تابع، وابتسامة صغيرة ترتجف بين صلابته:

"لكن هذه الأرض ليست لنا،

سنعود إلى المملكة، إلى أرضنا، لنبني ما يستحقه من بقي حياً"

هتف الجنود جميعهم، وارتفعت الرايات بين الأمواج، بينما كانت سفنهم تستعد للرحيل.

عاد رومان، وعادت معه لينا،

عاد الحب والحرب، والنار والماء،

لكن هذه المرة، لن يُنتزع منهم شيء من دون أن تُفتَح أبواب الجحيم.

خرجت الجيوش من أعماق البحر،

من بين الحطام والمعارك، من صخر الممالك الغارقة، ومن دم الأمواج التي ابتلعت سنوات من الألم،

صعدوا واحداً تلو الآخر، جنود آل زايريس، مقاتلو أوراليم، وبقايا حلفاء البحر، حتى لامست أقدامهم اليابسة، أول مرة منذ بدأت الحرب.

رومان كان في المقدمة، يده تمسك بيد لينا، وظهره مرفوع كمن خرج من الجحيم منتصراً، لكن قلبه مثقل بكل من خسر.

عند طرف الخليج، حيث تنتظر سفن أوراليم الفخمة، وقفت الملكة نايرا، تراقب رجالاً يعودون، ودم على جبينها كُتب كوسام حرب.

تقدّم منها رومان، وانحنى لها احتراماً، وقال بصوته المبحوح من المعركة:

"قاتلتِ معنا كأخت، لا كملكة،

ولن أنسى ما قدّمتِه من دون شرط ولا عهد مكتوب"

ابتسمت نايرا، واقتربت بخطوات هادئة، ثم رفعت يدها، ومسحت بلطف بقعة الدم الجاف على خد رومان، وأجفلت لينا فوراً وهي

تراقب المشهد،

ثم قالت نايرا بنبرة خافتة:

"كنتُ أظن أوراليم وحدها تستحق ملكاً مثلك"

ثم مالت ناحية أذنه، وهمست بشيء لم يسمعه أحد،

انكمشت عينا لينا، واشتعل في وجهها لونٌ لم يكن من الشمس، ولا من البرد؛ بل من غيرةٍ فاضت فجأة، حتى كادت تُخرج يدها من يد رومان.

لكن رومان، من دون أن يلتفت، شدّ يدها أكثر، وقال بصوتٍ عالٍ كي تسمع:

"لكن قلبي لم يبايع أحداً، سوى من وقفت معي في الظلمة، لا في المجد"

حينها فقط، تراجعت نايرا بخطوة، وابتسمت، ثم أومأت لهم جميعهم،

ركبت سفينتها، ورفعت راية أوراليم.

وبينما كانت الرياح تدفعها بعيداً، رفع رومان صوته للجنود:

"إلى الممالك، لنُعيد البناء من رماد هذا البحر"

ومع كل خطوة كانوا يبتعدون فيها عن أرض محرز،

كانت الشمس تُشرق أخيراً،

وكأنها لم تشرق من قبل.

ركب رومان ولينا السفينة الملكية برفقة جيش آل زايريس، تتقدّمهم راياتٌ مُمزقة من المعركة، لكنها مرفوعة بعزٍ لا يُنكسر.

كانت وجوه الجنود تعبق بالصمت والتفكير والنجاة، أما البحر، فكان ساكناً كمن انحنى احتراماً لِمن نجا من غضبه.

جلس رومان على سطح السفينة قرب لينا، وقد التفّ المعطف الملكي حول كتفيه المُتعبتين، لكنه بقي يحدّق فيها بصمت،

كانت تُشيح بوجهها عنه، وتجيب عن أسئلته بنبرة مقتضبة.

أخيراً مال إليها، وهمس:

"لينا، هل هناك ما يُزعجك؟"

هزّت كتفيها من دون أن تنظر إليه:

"لا شيء"

رفع حاجبه، اقترب أكثر:

"أحقاً؟ بعد كل ما مررنا به، تتعاملين معي كأني أحد الجنود؟"

زفرت بهدوء، ثم نظرت أمامها، تحاول إخفاء ما في قلبها،

لكن رومان، بعين خبيرٍ بقلبها، ابتسم بخفّة، وقال:

"هل لهذا علاقة بالملكة نايرا؟"

تجمّدت لينا،

ثم التفتت إليه فجأة:

"أنت سمعت؟"

ضحك، ضحكة حقيقية خرجت من قلبه أول مرة منذ أشهر، ثم قال:

"لم أسمع ما قالت، لكنني سمعت قلبك"

خفضت عينيها، وضربته بخفة على ذراعه:

"لا أحبك عندما تضحك وأنت تعرف كل شيء"

اقترب منها أكثر، وقال هامساً:

"إن كان هناك في هذا العالم من يثير غيرتك، فأنا رجل محظوظ"

ثم أضاف، وهو يُمسك بيدها:

"لكن دعيني أطمئنك، ما كنتُ لأعبر كل هذا البحر، وأكسر كل تلك الجدران، وأحرق كل تلك الممالك،

لأضع قلبي بين يدي غيرك"

حينها فقط، ابتسمت،

وعاد الصمت بينهما، لا زعل فيه؛ بل راحة عميقة، تشبه وعداً لم يُقال، لكنه معروف.

وفي الأفق، ظهرت أبراج مملكة آل زايريس، ترتفع من بين الضباب، كأنها كانت تنتظر ملكها الغائب ليعود.

في قلب صحراء أندروميدا، حيث لا تنبت الحياة، ولا تمرّ القوافل، كانت هناك مغارة، لا تشبه أي كهفٍ مألوف،

مغارة تُغلق نفسها على الداخل، وتُنسي الخارج أنه مرّ بها يوماً،

كانت الرمال تهتزّ أمام مدخلها، كأنّ الأرض نفسها ترتجف، على الرغم من سكون السماء،

داخلها... رائحة دخان قديم، وجدران محفورة بلغةٍ لم يعد أحد يجرؤ على قراءتها.

ومن الأعماق... خرج صوت،

صوتٌ لا يُشبِه إلا نفسه،

صوت محرز:

"أيها الساكن بين الحيّ والميت، أنا أدعوك"

سكنت الأصوات،

ثم بدأ الظلّ يتشكّل أمامه،

شبحٌ ملوّث برائحة القطران، له عينٌ واحدة تتوهّج كجمرة، وجسدٌ لا يُرى إلا في الزوايا، يتشكل من الفراغ.

تكلّم الكائن:

"جئتَ تطلب الطريق... إلى الجزيرة المحرّمة؟"

أومأ محرز:

"أجل، أريد العبور، لا بحراً بقي آمناً لي، ولا أرضاً تحت قدميّ تستقبلني، الجزيرة فقط، هناك أحتاج إلى أن أذهب"

ضحك الكائن، ضحكة تُشبه تمزق لحم،

الجزيرة لا تُفتح بالأبواب؛ بل تُفتح بالأرواح،

اقترب أكثر، كأنّه يمشي على صدى صوته، ثم همس:

"أُريد منك عقداً، لا زمن له"

صمت محرز، ثم قال:

"أيّ عقد؟"

"عقد حياة، تعطيني روحك إن متّ في أرض الجزيرة. وإن خرجت منها... تُعطيني دم وريثك"

قطب محرز، ثم قال بثقة مريضة:

"لي وريثان"

ضحك الكائن:

"أعرف، ولكنني أُريد الدم النقيّ منهما... دم الذي فتح الباب الرابع، الذي أحيا ما ظنّه الجميع أسطورة"

مرّت لحظة صمت طويلة.

ثم قال محرز:

"أوافق، أعطني الطريق"

ففُتح في وسط المغارة هواء... هواء لا يشبه أي ريح؛ بل يُسحب إلى الداخل سحباً.

دخل محرز، واختفى

حين فتح عينيه... لم يكن واقفاً، بل معلّقاً كأنه يُسقط من حلمٍ نُسي نصفه.

تحته أرضٌ من صخرٍ أزرق، لا يعكس الضوء؛ بل يبتلعه.

أرض ملساء كظهر كائنٍ نائم، لكن من يخطو فوقها يشعر أن شيئاً يتحرّك تحته - كأن الأرض نفسها تتنفّس.

والسماء فوقه؟ لم تكن سماء؛

بل قشرة رقيقة بين عالمين، غشاءٌ شفاف كأنّه جلد ميت يُخفي تحته نجوماً لا تضيء؛ بل تراقب.

والجبال... لم تكن صخراً فقط؛

بل أفواهاً ضخمة، تصرخ بأصوات لا تُسمع، لكنّها تُغرس في الدماغ كاهتزازٍ داخلي، يحرّك شيئاً ما في العظام، كأن الجسد يُعاد تشكيله ببطء.

ثم، في قاع كهفٍ مظلم، لا يصل إليه لا نور ولا نسمة، حيث الهواء ساكنٌ كالماء الراكد منذ ألف سنة...

رآها.

لاراسيا.

ابنته. أو ما تبقى منها.

كانت مقيدة... لكن السلاسل لم تكن عادية.

سلاسل من عظم البحر - وهي ليست من هذا العالم. ملتوية

ومشققة وشفافة، تنبض بين الحين والآخر كأنها تتذكّر إلى من تنتمي.

مربوطة في أربعة أركان، ككائن مقدّس يُضحّى به، وعلى وجهها وشمٌ قديم - رموز بلون الدم اليابس، كأنها نجوم سداسية تتوهج بضوءٍ أزرق غريب كلما اقترب منها.

اقترب.

بخطى مترددة، كأن كل خطوة تسلب منه قرناً من عمره.

كانت مغمضة، لكن صدرها يرتفع... ببطء. لا تزال على قيد الحياة.

لكن حين فتحت عينيها -

انكمش الكون.

لم تكن نظرة ابنة إلى أبيها.

بل كائناً... ينظر إلى كائن آخر لا يعرفه، لا يكرهه ولا يحبه... بل لا يعني له شيئاً.

قالت، بصوتٍ لم يكن لها وحدها...

بل كأنّ جوقة أرواح قديمة تتحدث من أعماقها، من زمنٍ لم يُسجّل في كتب البشر:

"أبي...؟"

ارتجف. اقترب. همس، وصوته مبحوح:

"لاراسيا...! لقد جئت"

لكنها قاطعته.

عينها ترمش ببطء، كأن الزمن داخلها مختلف.

قالت:

"لماذا تأخرت...؟"

قالتها بهدوء قاتل،

قالتها كمن كان ينتظر، حتى فقد القدرة على الانتظار،

ثم بدأ وجهها يتحوّل،

بشرتها تتشقّق، لا دم يخرج منها؛ بل هو بخار أسود،

عيناها تتوسعان، يتلاشى البياض، ويغمرهما سوادٌ لا قرار له كأنهما نوافذ إلى عالمٍ لا اسم له.

تقدّمت نحوه، على الرغم من السلاسل، على الرغم من الأرض التي كانت ترتجّ تحتها.

قالت بصوتٍ مزدوج، يتردّد فيه صدى امرأة، وشيء آخر لا يُصنّف:

"لقد استدعيتني،

وعقدتَ روحك"

وفجأة، تهشّمت واحدة من السلاسل،

كُسر عظم البحر، وصرخة... ليست من فمها؛ بل من قلب الجزيرة.

ومن الظلال خلفه، خرج الكائن الذي كان يتبع محرز - الظلّ الملتف

حول ملامح لا تُرسم.

صرخ، بصوتٍ مليء بالهستيريا:

"لقد أيقظتها، أيها الغبيّ،

لقد أعدتها إلى العالم!"

لاراسيا -أو ما يسكن جسدها الآن- رفعت رأسها؛ وقالت:

"أنا... الباب الخامس"

وفي اللحظة التالية، اهتزّت الجزيرة بأكملها.

زُجّت الأرض، وتشققت السماء، وبدأت القارة نفسها تتحرّك، تتغيّر، تبتعد عن موقعها القديم كأنها تهرب،

والبحر... صار يعوي.

لم يكن النصر إلا صمتاً مؤجلاً، تنفّس فيه البحر، ثم سكت.

عادت الجيوش، واحتفلت الشعوب، ورفرفت رايات آل زايريس فوق قممٍ لم تعرف سوى العواء،

لكن في الليالي الهادئة، كان القمر ينزلق خارج مكانه،

وكانت النجمة السابعة قد اختفت، كأنها لم تكن.

في كهوف لا يجرؤ أحد على تسميتها، تفتحت أعينٌ لا تنام.

وفي الصحراء، حيث لا ظلّ إلا لما لا جسد له،

وُقّع عقدٌ من دمٍ لا يجف، بين محرز... وشيءٍ لا يُسمّى.

وفي الجزيرة المنسية، فُتحت عين لاراسيا، لكنها لم تتذكّر أحداً...

إلا رجلاً، ذا خنجر مرصع بأحجار نقية ذات لون بنفسجي كانت تحلم فيه كل ليلة من دون أن تعرف اسمه.

أما لينا...

فكانت تحلم بآسر، واقفاً على البحر، تحترق قدماه بلا نار،

وفي عينيه ظلُّ شيءٍ قادم...

قال أحد الكهنة:

"الباب الرابع فُتح... والباب الخامس لا يُفتح؛ بل يُفجّر.."

وفي عمق الظلام،

سمع صوت لا يتبع لغةً معروفة،

يهمس من وراء الجدران والأسماء:

"رومان... سيُختار من جديد.."

ومن يُوقظ ما نُسي

عليه أن يعرف أن النسيان

أحياناً، كان نعمة